الباب الثامن

فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان السلطان الأعظم سليمان خان، وبعض ما فعل من المآثر الحسان، والصدقات الجارية والخيرات الباقية على صفحات الزمان، سقى الله تعالى عهده سحائب الرضا والغفران

كان سلطانًا سعيدًا، ملكًا أيّده الله تعالى لنصرة الإسلام تأييدًا، تولّى السلطنة بعد وفاة والده المرحوم السلطان سليم خان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على تخت السلطنة ولا دمى أنف أحد ولا أُريق فى ذلك محجمة من دم، ومولده الشريف سنة تسعمائة، كذا ذكره مولانا محمد بن الخطيب قاسم الرومى، فى حاشية كتاب له مختصر من ربيع الأبرار للزَّمَخْشرى سمّاه الروضة[1]، ورأيت ذلك بخطّ طائفة من الفضلاء المعتمدين فيكون سنُّه الشريف حين ولى السلطنة ستًا وعشرين سنة، واستمرّ فى السلطنة تسعًا وأربعين سنة، وكان عُمره أربعًا وسبعين سنة وشهرَيْن.

وهو سلطان غازٍ فى سبيل الله، مجاهدٌ لنصرة دين الله، مُرْغم أُنُوف عداه، بلسان سَيْفه وسنان قناه، كان مؤيّدًا فى حروبه ومغازيه، مسدّدًا فى آرائه ومعازيه، مسعودًا فى معانيه ومغانيه، مشهودًا فى وقائعه ومَرَاميه، أيَّانَ سلك ملك، وأنَّى توجّه فتح وفتك، وأين سافر سفر وسفك، وصلَتْ سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البُلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بقوّة الطّعْن والضرب، وأيّد الدين الحنيفىّ بحدود سيفه الباتر، وأقام الملّة الحنيفية وأحْيَا ما لها من مآثر، ونصر مذهب أهل السُّنَّة السنية، وأظهر شرائع الشعائر، وردع أهل الإلحاد وقمعهم فما لهم من

(١) وانظر فى ذلك أيضًا: المنح الرحمانية ص١٠٤.

ناصر، وكان مجدّد دين هذه الأمة المحمّدية فى هذا القرن العاشر، مع الفضل الباهر، والعلم الزاهر، والأدب الغضّ الذى يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر، إن نظم نَضَّدَ عقود الجواهر، أو نثر أثر منثور الأزاهر، أو نطق قلد الأعناق نفائس الدرّ الفاخر، له ديوان فائق بالتركى، وآخر عديم النظير بالفارسىّ، يتداولهما بُلغاءُ الزمان، ويعجز أن ينسج على منْواله فضلاء الدَّوَرَان، تتناقله الركبان بكلّ لسان، وتستلذّ بمعانيه العقول والأذهان، وكان رءوفًا شفوقًا، صادقًا صدوقًا، إذا قال صَدَقَ، وإذا قيل له صدّق، لا يعرف الغِلّ والخِداع، ويتحاشى عن سوء الطباع، ولا يعرف المكر والنفاق، ولا يألف مساوئ الاخلاق، بل هو صافى الفُؤَاد، صادق الاعتقاد، منوّر الباطن كامل الإيمان، سليم القلب خالص الجنان، لا يُرتاب فى كمال ديانته، ولا يُشَكُّ فى صلاحه ولا فى ولايته:

وما تناهَيْتُ فى بثى[1] محاسنه إلا وأكثر مّما قلت ما أَدَعَ

وقد أهَّلَنى الله إلى أن قبّلْتُ يده الشريفة، وتشرّفتُ برؤية طلعته المنورة اللطيفة، وشاهدت ذاته العليّة المنيفة، فرأيتُ نورًا يتلألأ، وهيئة ألبسها الله مهابّة وجلالا، وجبينًا يتضوّع ضياء وجَمالاً، وألبسنى تشريفه الشريف، وشملنى بإحسانه الوافر الوريف، فهأنا أتقلّب إلى الآن فى جزيل إنعامه، وأعيش إلى الآن فى فائض تفضلاته وإكرامه، وأترحّم على ذاته الطاهرة الجميلة، كلّما تذكّرت إحسانه وجميله، وأُخَلّد ذكره الحسن فى أطباق أوراق الليل والنهار، وأرقمه فى صفحات دفاتر الأيام حيث لا تمحوه كرور الدهرر والأعصار، لا تزيده الأيام إلا جدّة ونضارة، ولا يزال غضًا طريًا جديد البراعة والعبارة.

* * *

(١) فى ل: «شىء»، والمثبت رواية م.

فصل فى ذكر أولاده الأمجاد الكرام وأحفاده النجباء العظماء

كان أكرمهم وأمجدهم، وأعزّهم وأسعدهم، وأنجبهم وأرشدهم، ولىّ عهده وخلاصة عُنْصرُه، وربيب حجره ومهده، مُشَيِّد أركان الملك العثمانى، السلطان سليم الثانى، أجلسه الله على سرير القرب والتدانى، وعَوَّضَه ملك الفردوس الباقى، عن سلطنة هذا الملك الفانى، مولده سنة تسع وعشرين وتسعمائة كما يأتى فى محلّه، ومنهم السلطان السعيد الشهيد السلطان مصطفى وهو أكبر أولاده ومولده سنة إحدى وعشرين وتسعمائة استدعاه والده من المحلّ الذى ولاه وهو مغنيسيا إلى أركلى وهو متوجّه إلى تبريز لأخذ بلاد العجم، فوصل إليه ممتثلاً لأمره باذلاً نفسه.

وكان والده يتوهّم منه خروجه عليه، فلمّا حضر بين يديه أمر طائفة من البُكْمان بخنقه فخنُق صبرًا وقُتل قهرًا فى آخر شوال سنة ستين وتسعمائة وألطف ما قيل فى تاريخه ظلم فى حدود آخر شوال[١].

ثم أرسل إبراهيم باشا الخادم إلى برُوسا لقتل ولد له طفل اسمه مراد، فمضى إليه وخنقه وألحقه بوالده رحمهما الله[٢].

ولم يرتكب السلطان سليمان هذا الأمر الفظيع، الذى قطع القلوب أى تقطيع، إلا لتسكين الفتن، وإطفاء نار المِحَن، ما ظهر منها وما بطن، صونًا لدماء المسلمين، وحفظًا لنظام التَّأمين والتطمين.

ومن أولاده السُّعداء السلطان محمد، مولده سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وتوفى على فراشه بأجَله فى سنة خمسين وتسعمائة[٣].

---

(١) المنح الرحمانية ص١٠٥.

(٢) المصدر السابق ص١٠٦.

(٣) المصدر السابق ص١٠٧.

ومنهم السلطان السعيد الشهيد الغريب الشريد السلطان بايزيد مولده سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة اجتمعتُ به مجلسًا واحدًا فى رحلتى الثانية إلى الروم فى سنة خمس وستين وتسعمائة وقد استدعانى وأنا مارٌّ عليه بقرب كوتاهية فى قرية يقال لها قره أُبُوك، وكان الأمر منسجمًا بعد بينه وبين والده المرحوم فعدلتُ إليه وحضرتُ بين يَدَيْه، وأقبل علىَّ بكليّته وأقبلتُ عَلَيْه، وعظّمنى وعظم أمرى وأكرمنى فوق قدرى وباسطنى وخاطبنى بدون واسطة وقرّبنى وأخلى مجلسه لى وحدى، ولم يَتْرُك فرعًا من الفروع التى أراد كشفها وتحقيقها إلا سألنى عنها بلطف وتؤدة، وأجبتُه عنها بأدب وسكون وملاحظة، وأدرجت مع ذلك نصائح تصلح للملوك وهو يصغى إليها ويحسن فى الإصغاء إلى استماعها ويتفكّه ويتلذّذ بسماعها، وسألنى فى الإقامة عنده لمصاحبته فاعتذرت إليه وكرّر ذلك فأَبَيْتُ عليه وكان الخير فى ذلك، وكلّما طال المجلس استأذنت للقيام فيأبى ويقول ما أسرع ما مَلِلْتَ حديثنا ونحن نستطيب حديثك! وكان أول المجلس من صلاة الظهر واستمرّ إلى بعد العصر، فألبسنى التشريف وأحسن إلىَّ بأثْواب صوف ودراهم لها صورة وفارقتُه ودخلت إصطنبول، وتوفّيت والدته السلطانة أُمُّ السلاطين الخاصكية بعد دخولى وحضرت جنازتها وما أُجرى من الصدقات علىها.

وكانت هى كالطلسم للسلطان بايزيد، فلمّا توفيت حصل الشنآن بينه وبين أخيه السلطان سليم خان أدّى إلى فتن عظيمة ومحاربات قتل فيها نحو خمسين ألف نفس فصاعدًا، ثم لمّا عجز عن مقاومة والده وأخيه هرب إلى شاه طهماسب ففرح به وأقام ناموسه وعجز عن حفظه[1].

فشرع طهماسب فى المكر والخداع وتفريق عسكره والاعتذار بضعف بلاده عن أن تسعهم ففرّقهم، ثم استولى عليه وحبسه هو وأولاده وقتل عسكره واحدًا بعد واحد واغتنم منهم مالاً كثيراً[2].

(١) المنح الرحمانية ص١٠٧.

(٢) المصدر السابق ص١٠٨.

وتردّدت الرسل بينه وبين السلطان سليمان فى تسليمه لوالده، فلمّا تأكّد طلبه من طهماسب ذكر أنه أصرف عليه خزينة مال وأنه لا يسلّمه إلا بأن تُعْطَى له فسُئل عن قدر ذلك فذكر مقدارًا عظيمًا يكون مثل خراج مصر سنة، فأمر السلطان سليمان بدفع ذلك القدر إليه[١].

فلمّا تسلّمه أُحْضر السلطان بايزيد وأولاده الأربعة وكلٌّ واحد كالبدر الطالع، والنجم الساطع، فخُنقوا مع والدهم بإدارة الوَهَق، حتى لم يبق منهم رَمَق، وأخمدوا أنفاسهم بالأوتار، وأطفئوا تلك الأنوار، ورُزقوا سعادة الشهادة بالاضطرار.

وهم السلطان أُورخان والسلطان محمود والسلطان عبد الله والسلطان عثمان، وحُملت أجسادهم فى توابيت من قَزْوين إلى سيواس، ودُفنوا فى سيواس، وأسكن الله الفتنة والوسواس، وذلك فى سنة سبعين وتسعمائة[٢].

وكان للسلطان بايزيد طفل صغير فى بُوسَا فأمر بخنقه أيضًا فخنق، والله تعالى يبلّ مضاجعهم بأقطار أمطار الرحمة والرضوان، ويعوّضهم عن شبابهم الجنّة ويروّح أرواحهم فى غُرَف الجنان، بالروح والريحان، والحور والولدان، والخيرات الحسان.

ومنهم الشهزاده السلطان جهانكير خان مولده سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وكان أحدب ظريفًا، خفيف الروح لطيفًا، يحبُّه والده ولم يفارقه إلى أن توفى بأجله فى حلب بمرض الخَنَّاق فى سنة ست وتسعمائة، ونقل إلى إصطنْبول ودفن فى تربة أخيه السلطان محمد الشهزاده[٣].

ومنهم الشهزاده السلطان مراد توفى بأجله فى سنة سبع وعشرين وتسعمائة، ومنهم الشهزاده السلطان محمود توفى بأجله سنة ثمان.وعشرين وتسعمائة وهذا والذى قبله مدفونان فى تربة السلطان سليم الكبير جدّهما

(١) نفس المصدر.

(٢) المنح الرحمانية ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) المصدر السابق ١٠٩ ـ ١١٠.

رحمه الله، ومنهم الشهزاده السلطان عبد الله توفى بأجله فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة[١].

وتوفيت والدة السلطان سليم خان فى سنة أربعين وتسعمائة وكانت صالحة زاهدة محبّة لفعل الخيرات كثيرة الصدقات، أسكنها الله تعالى أعلى غرف الجنّات.

* * *

فصل فى ذكر وزرائه العظام

كان أول وزرائه: آصف زمانه وبزرجمهر أوانه معدن الرأى والدّهى موضع العقل والنُّهَى بير محمد الجمالى الصديقى المعروف ببيرى باشا، صادفه وزيراً لوالده فأبقاه على وزارته مدّة، وكان السلطان سليم يتتبع فى أول سلطنته طوائف العلماء المتميّزين بكمال العقل والرأى، فلم يجد أكمل رأيًا ولا عقلاً منه، وكان قاضيًا فى بعض القصبات فقرّبه وولاه وزارته العظمى واستمرّ فى وزارته مدة سلطنته عنده لم يغيّر، وسلم من فتكه لكمال دُرْبته مع كثرة من قُتل من الوزراء، وكان فاضلاً كاملاً متين الرأى عاقلاً يُضْرَب المثل بفراسته وعلمه وعقله وحلمه، فلمّا وزر للسلطان سليمان رأى فى خدمته من شباب مماليكه من هو مثابرٌ على الوزارة طائرٌ إليها بجناحَيْه، ورأى سلطانًا شابًا يميل إلى أترابه وذوى أسنانه وهو بينهم بشيخوخته وكبر سنّه لا يناسبهم فاستعفى عن الوزارة فأُجيب إلى سُؤَاله، فانجمع للنظر فى حاله ومآله، ورأى بعين كماله، عدم ثبات الدهر فى أحواله، فأخذ فى زاد تِرْحاله، وقدّم من الخيرات، ما يكون ذخيرة لآخرته من الباقيات الصالحات.

فمن آثاره عمارته فى إِدْرَوْنه فى دربند وكان محلّ قطاع الطريق يُنْهَب فيه قوافل المسلمين، فعمل هناك تكيّة عظيمة ومحلاً لنزول المسافرين فيه طعام

(١) المصدر السابق ص ١١٠.

يطبخ لهم ويقدّم إليهم، ومسجداً جامعًا، ورتب لذلك كلّ ما يحتاج إليه، ووقف أوقافًا عظيمة عليه، فصار أثرًا باقيًا على صفحات الزمان، وجميلاً يُذْكَرُ به ويُدْعَى له إلى انقضاء الدَّوَران، وله خيرات أُخرى غير ذلك يلوح عليها علامات القبول عند الله تعالى، كان عزله فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة.

وتولى مكانه فى الوزارة العظمى من المماليك الذين عنده داخل السَّراى أُوده باشى حُرمة الخاصّ إبراهيم باشا، وكان شابًا قد امتلأ غُصن نضارته بماء الشباب، ولازمته السعادة والدولة والعزّة والعظمة من جملة خدام الركاب، وكان أقدم منه فى الخدمة أحمد باشا، وظن أن الوزارة العظمى لا تتعدّاه إلى غيره لأنه من خواصّ مماليك والده، وإبراهيم باشا من مماليك السلطان سليمان نفسه، فزاحمه فى صدر دست الوزارة، وجلس بقوّة إدلاله بخدمة السلطنة الشريفة فى محلّ الصدارة.

فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان، فدبّر فى إزالته من ذلك المكان، فطلبه السلطان سليمان وجعل له إيالة مصر وأعطاها له تيمارًا[1] له وإقطاعًا يستجلب به خاطره، فمضى إلى مصر واليًا عليها وصار يتعقّبه إبراهيم باشا للعداوة السابقة ويرميه بما يوجب قتله، فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محلّه بالأمر الشريف السلطانى ويولى أحدهم مكانه إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة بكلربكى بمصر.

وأُرْسلت هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام فى يد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المذكورين فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطانى ورد إليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف فقتلهم.

ثم سَوَّلت له نفسه العصيان، وظنّ أنه يَأوى إلى جبل يَعْصِمُهُ من السلطان وأنه يقابل ويقاتل بجيش يلفّقه من مصر فأَبْدَى الطُّغيان، وادّعى السلطنة

(١) تيمار: معناه كل ما يعطى للمريض أو الحيوان من مئونة أو عناية، أطلق فى العصر العثمانى على الإقطاع الحربى الذى كانت تمنحه الدولة أو السلطان لأحد الرعايا من ضباط وجنود.

لنفسه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر فى أيام الجُمَع، ورتب عسكرًا من العوانية وجمع، وضرب السكّة باسمه على الدراهم والدنانير، وصادر الناس وجمع المال الكثير، وعصى عليه أهل قلعة الجبل، فجمع عليها الشُّطَّار فأخذوها بالحيل، وقتل من فيها من عسكر السلطان، وأَوْقد نيران الفتنة والعصْيان.

وكان ممّن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوى، ومحمد بيك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فسَمعَا أنه دخل الحمّام، فكسرا الحبس وبرزا ونصبا سنجقًا سلطانيًا ونادَيَا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه فاجتمع تحت السنجق السلطانى خلقٌ كثير وجمٌّ غفير، وصار سردارهم محمد بيك وجانم الحمزاوى بمثابة الوزير، وتوجَّهَا بالعسكر إلى الحمّام، فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجله النصف الثانى هُجُوم العسكر السلطانى عليه فهرب إلى السطوح وتسلّق من مكان إلى مكان وخلص إلى البرّ والتجأ إلى شيخ عرب الشرقية عبد الدائم بن بقر، وقوى العسكر السلطانى ونهبوا ما جمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا إليه يطلبونه وخوّفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة، فأتاهم به ممسوكًا فقطعوا رأسه وطافوا به فى مصر وعلقوه فى باب زويلة ثم جهّزوه إلى الأعتاب السلطانية وذلك فى سنة ثلاثين وتسعمائة.

وضبط محمد بيك وجانم الحمزاوى مصر إلى أن ورد مصطفى باشا وضبط مصر بكلربكيًا، واستمرّ إبراهيم باشا فى وزارته العظمى، معظمًا عند السلطان نافذ الأمر واسع العطا كريمًا بَذولاً منفردًا بالأمر والنهى، إلى أن أفرط فى الدلال، وزاد فى الإدلال، واستبدّ بالأمور، واستقلّ بمصالح الجمهور.

فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله، وما تحمّلت زيادة عجبه وإدلاله، فطلبه السلطان فى ليلة من أواخر رمضان، إلى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس إنعام وافرة ووهب له جميع ما فى مجلسه من أوانى الذهب المرصّعة بالجواهر الغالية، وطيّب خاطره وطيّبه بالعنبر والمسك والغالية، وأمره

أن يبات عنده فى مجلس خاصّ به كان عادته أن يبات فيه، وصبر عليه إلى أن غلب سلطان الكَرَى على مقلته وأماقيه وأمر بذبحه فذُبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيراً والسلطان قريب منه وقد صمّم فيه أمره، فأمر بأن يكمل ذبحه فقطع رأسه، وأطفئ نبراسه، وأخمدت أنفاسه، وما كانت نار الغضب على إبراهيم برداً وسلاماً، بل زادته حراً واضطراماً، ولعلّ كثرة إحسانه إلى الناس، ونشر مكارمه التى زادت على الحدّ والقياس، نفعته عند الله تعالى فى الدار الأخرى، ولعلّه صدقت نيّته فى بعضها فصادفت قبولاً وصار له عند الله الكريم ذخراً، فكم من عمل صالح يكون سبباً للنجاة من النار، ويدخل به صاحبه الجنّة مع الشهداء الأبرار، وما ربّك بظلاّم للعبيد، وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة إحدى وأربعين وتسعمائة.

ثم ولى الوزارة العظمى الوزير الثانى إياس باشا، وكان من الأَرْنَؤد من مماليك المرحوم السلطان سليم خان وكان محبّاً للصلحاء، ومعتقداً فى طائفة العلماء، معتدلاً فى أحواله صادقاً فى أقواله، قَطُوفًا فى آرائه وأفعاله، اجتمعتُ به فى أول رحلتى إلى إصطنبول سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكان يُكاتب والدى ويلتمس دُعاءه فأكرمنى وأقبل علىَّ وأحسن إلىَّ وربّانى عند السلطان، وأخبره عن والدى وكبر سنّه وانفراده بعلم الحديث وعُلُوّ السند فى عصره، فحصل لى إنعام كثير وإكرام كبير جزاه الله عنّى خير الجزاء، وأسكنه الجنّات العُلَى، استمرّ وزيراً إلى أن توفى مطعونًا فى سنة ست وأربعين وتسعمائة.

ثم ولى بعده الوزارة العظمى لُطْفِى باشا من الأرنؤد، وهو من مماليك المرحوم السلطان سليم، وكان له فضل واشتغال ومشاركة فى بعض الفضائل، وله رسالة بالتركية شرح فيها الفقه الأكبر لإمامنا الأعظم أبى حنيفة النعمان، وله آثار حسنة فى وزارته منها إبطال الأولالق[1] فإنه كَثُرَ فى تلك

(١) الأولاق: مفرد، جمعه: أولاقية، لفظ تركى بمعنى: الرسول، أطلق فى العصر العثمانى على الرسول أو الذى يجىء بالأخبار.

الأيام وعمّ أذاهم للمسافرين، وكانت الطُّرقات لا تخلو منهم فيأتى أحد الأولاقية إلى المسافر ويرميه عن دابّته ويركبها إلى أن تنقطع فيرميها، ويأخذ دابة مسافر آخر وهلمّ جرًا ولا يسلم منهم أحد، فلمّا ولى الوزارة أبطل كثرتهم وعيّن أن لا يُرسل الأولاق إلا فى المهمّات العظيمة السلطانية المتعلّقة بظهور عَدُوّ على المملكة يخشى عليها أو أمثال ذلك من الأمور العظيمة جدًا فقلّ ضررهم بعد ذلك على المسافرين، وصارت الناس تدعو له بسبب إزالة هذه المظلمة.

وكانت الخلفاء تعدُّ خيلاً تربط لهم فى كلّ بلاد وقرية تحت حكومتهم، وكانت تُسَمَّى خيل البريد، فإذا حدث أمرٌ مهمٌّ، أركبوا من أرادوا على خيل البريد فيركبها إلى أن يصل[1] إلى قرية أخرى فيجد فيها أيضًا خيل البريد، فيركبها ويترك الأولى وهكذا إلى أن يصل إلى بغداد ويرجع عنها بالأمر الذى يُؤمَر به، وكان لهم خُدَّام لمثل هذه الخيول بعلوفات ومرتّبات رحمهم الله ورحم من أزال بقية ظلم الأولاق ورفعه عن المسلمين بالكلية، وعيّن لهذه المهمّات خيل البريد كما كان يفعله الخلفاء رحمهم الله.

واستمر لطفى باشا وزيرًا إلى أن وقع بينه وبين زوجته مخاشنة وهى أخت حضرة السلطان سليمان وسببها كثرة ميله إلى الجوارى فشكَتْه إلى أخيها فطلبه إلى عنده وضربه بالقوس على رأسه وأمره بمفارقتها وأكرهه على طلاقها، ففارقها مكرهًا وطلب الإذن فى الحجّ فأذن له فحجّ فى سنة تسع وأربعين وتسعمائة فاجتمعتُ به وأرانى تأليفه وأمرنى بتعريبه فعرّبته، ثم أمرنى أن أترجمه له بالفارسية فترجمتُهُ له حسب ما أراد، وأحسن إلىَّ بسبب ذلك، ثم عاد من الحجّ إلى الباب واستأذن أن يكون فى قرية له من إقطاعه فأذن له واستمرّ فيها إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة خمسين وتسعمائة وكان عزله فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة.

وتولى مكانه الوزارة العظمى سليمان باشا الخادم هو من الأرنؤد من

(١) فى ل: «وصل» والمثبت رواية م.

مماليك السلطان سليمان، وكان قد ولى إيالة مصر قريبًا من عشرة أعوام ثم عزل عنها ثم أُعيد إليها وجعل سردار العسكر المجهّز إلى الهند لدفع ضرر البُرْتغال اللعين عن المسلمين واستيلائهم على بنادر الهند، ثم كثرة أذاهم لبنادر اليمن ووصولهم إلى بندر جدَّةَ وإلى بنادر السُّوَيْس على مرحلتين من مصر، وعاثوا فى البحر وأخذوا سفائن الحُجاج والتجار غصبًا ونهبوا أموال المسلمين وأنفسهم أسرًا وقتلاً ونهبًا وفتكوا بسلطان كُجرات السعيد الشهيد السلطان بهادر شاه وقتلوه غدرًا[1].

فتحركت الحميّة العليّة السلطانية، واضطرمت نار العصبية الإسلامية السليمانية، فأمر سليمان باشا أن يعود إلى مصر، وأن يعمّر سفائن يركبها مع عسكر جرّار، إلى أرض الهند ويقطع دابر الكفار، وينظف تلك الأقطار، من الكفرة الفجّار، فعمل نحو سبعين غرابًا وسفاين مسمارية كبارًا لحمل الأثقال، ورتب العساكر وقتل عند سفره جماعة لا ذنب لهم غير صدق خدمتهم وحُسن الوفاء بعهدهم حسدًا لهم على ما آتاهم الله من فضله، منهم الأمير جانم الحمزاوى وولده الأمير يوسف، وكانا من السناجق العظيمة السلطانية ختم الله لهما بالشهادة[2].

وقتل أيضًا الأمير داود بن عمر أمير الصعيد، وكان كريمًا بَذولاً حافظًا لبلاد الصعيد بغير ذنب أتاه.

ثم توجّه إلى الهند وصلب صاحب عَدن فى طريقه مع أنه فتح له باب عدن وزين الأسواق بوصول العسكر المنصور السلطانى، فبمُجَرَّد وصوله إليه صلبه على صارى السفينة وجعل سنجقًا فى عدن، وتوجه إلى الهند وعاد منها إلى اليمن من غير أن ينال كفار الهند منه ضرر.

وكان الأمير أحمد صاحب زبيد إذ ذاك من جملة اللَّوَنْد الذين استولوا على تلك الديار، فأعطاه الأمان وطلبه إلى عنده وقتله، وولى موضعه أميرًا

(١) المنح الرحمانية ص١٤٥ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص١٤٨.

ممّن كان معه وعاد إلى مكة فحجّ وعاد إلى مصر ثم إلى الباب العالى، وأسفرت سفرته عن أخذ زبيد وعدن، وكان ظالمًا غاشمًا كثير سفك الدماء لا يعتمد له على عهد ولا يوثق له بأمان، لم يُعْهَد منه شجاعة ولا إقدام، وإنّما يفتك بمن يقع فى يده مأسورًا مغلولاً.

ورعا له المرحوم السلطان سليمان خدمته لوالده السلطان سليم وصدقه فى الخدمة فولاّه الوزارة العظمى عوضًا عن لطفى باشا لمّا عزله، واستمرّ وزيرًا أعظم مدّة يسيرة إلى أن عزله.

وولى مكانه فى الوزارة العظمى أوحد الوزراء العظام رستم باشا فى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وكان السلطان قد زوّجه كريمته صاحبة الخيرات جانم سلطان بنت السلطان سليم خان، فملأ عين الوزارة وزيّن صدر الصدارة وهو من جنس الأرنؤد من مماليك السلطان سليم رحمه الله، وكان ركيًا أَلْمَعيًا حاذقًا فطنًا ذكيًا ذا بال وسيع وفكرٍ دقيق بديع، جيّد الحافظة، حسن القريحة، ثاقب الرأى، حليمًا صبورًا رزينًا وقورًا كامل العقل كثير الأدب، اجتمع فيه من صفة الكمال، ما لم يجتمع فى غيره من الرجال، ولم تكن فيه خصلة تشينه غير إفراط حبّ الدنيا، والميل الشديد إلى جمعها بكرة وعشيًا، وتلك خصلة عمّت أكثر الطبائع والشِّيَم، وغلبت على أكثر أعالى الهمم، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، واستمرّ فى الوزارة العظمى إلى أن قتل المرحوم السلطان مصطفى وكان ذلك كما يقال بتأسيسه، وتخيُّله ومكْره وتدسيسه، حتى أن بعض الظرفاء جعل تاريخ ذلك على ما زعم أنه ألهم به، مكر رستم، وتوهّم من العسكر الإقدام عليه بالقتل فعزله السلطان سليمان صونًا له وخوفًا عليه من العسكر، وولى مكانه الوزارة العظمى أحمد باشا الذى كان وزيرًا ثانيًا وكانت وزارته تَحلَّةَ القَسَم، وتَعِلَّة لما أضمره السلطان فى خاطره الأشمّ، إلى أن قدّر الله ما قدره فى الأزل، ودنا منه وقت حلول الأجل، فعند بُروزه من عرض الأمور عليه، وانصرافه من بين يَدَيه، أمر بقتله عند الباب الداخلى من السَّراى فخُنق

هناك وأُخرج ملفوفًا فى بساط، وتفرّقت عنه الأتباع والأسباط، ومضى إلى الله الكريم، وأقدم على الغفور الرحيم.

وأعيد عوضه فى الوزارة العظمى رستم باشا واستمرّ وزيرًا كبيرًا، معتبرًا اعتبارًا كثيرًا. يُعمل بآرائه، وينفرد بإنفاذ الأمر وإمضائه، لا يعارضه أحد من الأركان، بل يطيعونه ويذعنون له غاية الإذعان، وصار لا يتصرّف قضاة العسكر والدفتردارية والبكلربكية وسائر الحُكّام والنُّظّار فى منصب جليل أو حقير، صغير أو كبير، إلا بأمره وإشارته، وإرادته بحيث لم يُعْهَد أن وزيرًا غيره أحاط بالأمور كإحاطته، وحفظ جزئيات المناصب وكلّياتها وتيقظ كحفظه ويقظته.

وكان لا يخلو من الصدقات والإحسان والميل إلى العلماء والصلحاء، واستمرّ على عظمته وجلالته لم يختل منها شىء إلا فى فتنة السلطان بايزيد ولكلّ شىء حدٌّ محدود، وأَمَدٌ من المقدور مدود، فإن السلطان اتّهمه بالميل مع بايزيد، ونزلت مرتبته بسبب ذلك عنده بالبون البعيد، ولكنها كانت تُهمة واهية لا أصل لها.

وكان خائفًا من ذلك أشدَّ الخوف، ولم يشاوره السلطان فى شىء من أحوال بايزيد وكان يشاور على باشا فأدى الحال إلى ما أدّى، ولو استشار رستم باشا وأطاعه فى رأيه، لم يتفاقم أمره إلى ما آل إليه، لحسن سياسته ودقة تدبيره والأمر لله من قبل ومن بعد، وما قدّره الله فهو كائن، والأقدار، تدور حول أولى الأخطار، وكم أريق بسبب هذه الفتنة من دم لا ذنب لصاحبه، وكم قُتِلَتْ بالتوهم نفوس مظلومين لا جرم لهم فى هذا البلاء ونوائبه:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ٠ حتى يراق على جوانبه الدم

واستمرّ رستم باشا خائفًا يترقّب، إلى أن أمرضه الوهم وأنحله فصار فى فراشه يتقلّب، إلى أن وافاه أجله المحتوم، فمات وأقدم على الحىّ القيوم، والله عليم بما تخفى الصدور، وهو الرءوف الرحيم الكريم الغفور، وكانت

وفاته فى سنة ثمان وستين وتسعمائة ودُفن فى تربة فى قرب تربة الشهزاده السلطان محمد رحمه الله.

وولى بعده الوزارة العظمى على باشا وكان من جنس البوسنة وكان جسيمًا طويلاً فَطنًا فهيمًا نبيلاً على خلاف ما يتراءى من عظم هيكله وسمن بدنه فإنها مَظِنَّة البَلادة فى الأكثر، فإذا أُخْطِئَ فيه مقتضاه زادت الفطانة غاية، كما تنقل هذه الهيئة عن الإمام محمد صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه، فإنه كان فى غاية الفطنة والذكاء يُضْرَب به المثل فى ذلك.

وكان على باشا له فضيلة فى الإنشاء ونظر فى التاريخ، اجتمعتُ به فى رحلتى إلى إصطنبول فى سنة خمس وستين وتسعمائة فرأيتُه لطيف المجاورة حسن المفاكهة لذيذ المصاحبة، ذكر لى بعض غزواته الدالّة على قوة شجاعته وأنه باشر قتال الكفار بنفسه وأنه افتتح قلعة عظيمة لهم اقتلعها منهم فقلتُ له: إن لم يقيّد ما ذكرتموه بالتدوين يذهب من الخواطر ولا يعلم تفصيله بعد مُضِىّ سنوات قليلة، وإذا فنى من كان حاضرًا فى هذه الغزاة فنى خبره أيضًا ولم يذكره أحد بعد ذلك مطلقًا وينمحى علمه من صفحات الوجود بعد قليل.

وذكرتُ له اعتناء علماء العرب بعلم التاريخ، وأن من جملة كُتب التاريخ اللطيفة: الروضتَيْن فى أخبار الدولتَيْن لابن أبى شامة، ذكر فيها دولة السلطان نور الدين الشهيد، والسلطان[1] صلاح الدين ابن أيُّوب وغزواتهما مع الإفرنج، وافتتاح البلاد ومداومتهما على الجهاد، وهو كتاب فى غاية اللطف وحُسن الوضع باقٍ على صفحات الزمان، معلوم عند القاصى والدان، مخلَّد فيه ذكرهما، مُؤبَّد فى أطباق أوراق الدهر أثرهما، وهما فى الحقيقة أميران من أمرائكم أحدهما بكلربكى مصر والثانى بكلربكى الشام؛ فلأىّ معنى لا تكون أخباركم وآثاركم مدوّنة فى الكُتُب، مخلَّدة فى صفحات الأعصار والحُقُب؟ فأعجبه كلامى كثيرًا وأمر فاضل ذلك الوقت فى

(١) تحرف فى ل إلى: «نور الدين الشهيد السلطان صلاح الدين» وصوابه من م.

الإنشاء العربى صاحبنا المرحوم المقدّس مولانا علىّ جلبى الجيدى، المعروف بقنالوزداه أفندى، أحد أفراد الدهر علمًا وفضلاً، وأوْحَد علماء العصر كمالاً ونبلاً، طيّب الله ثراه، وجعل الفردوس الأعلى مثواه، أن يكْتُبَ له شيئًا فى ذلك، فشرع وأنا بعد هناك فى شىء من ذلك المعنى فائق فى بابه لطافةً وحسنًا ثم تقلّبت الليالى والأيام، ومنعت الموانع عن حصول ذلك المرام.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنّهـا وكأنهـم أحـــلامُ

واستمرّ على باشا على وزارته العظمى، فى صدر صدارته الأجلّ الأسمى، نافذ الأمر عَلِىّ القدر، صاحب الصدر، إلى أن نقله الدهر عن صدارته، ورماه الزمان عن قوس وزارته، ودعاه داعى الفناء إلى حضرته، وسقاه الحِمام كأس منيّته، فعاش سعيدًا، ومضى إلى لحده فريدًا وحيدًا، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء حميدًا، وما صَحِبَهُ ممّا تخوّله غير ما قدم من أعماله، وقدم على الله الكريم بما كسب من أفعاله، وهو أرحم الراحمين بعباده فى كرمه وإفضاله.

ثم ولى مكانه الوزارة العظمى فى ذلك المقام الأرفع الأسمى آصف الوزراء العظام، أسعد السُّعداء الكرام، حضرة محمد باشا بقاه الله تعالى فى صدر الصدارة على الثبات والدوام، وصانه عن آفات الدهر وحرسه من نوائب الأيام، وناهيك به عقلاً وحزمًا وصرامة وعزمًا، وإقدامًا وعزمًا[1]، ودقة وفهمًا، وفكرًا ثاقبًا، ورأيًا صائبًا، وحذقًا وفطانةً، وصدقًا وأمانةً، وكمالاً وجمالاً، ومهابةً وجلالاً، وسعادةً وإقبالاً، ونظرًا فى عواقب الأمور، وإعانة لمصالح الجمهور، ومحبّة للعلم والعلماء، واعتقادًا فى الصلحاء والأولياء، وإحسانًا إلى الفقراء والضعفاء.

ومـا بلغت كفُّ امرئ متناولاً من المجد إلا والذى نال أطولُ

وما بلغ المهدون للناس مدحـة وإن أطنبوا إلا الذى فيـه أكمَلُ

وكانت وزارته فى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، واستمر على وزارته،

(١) فى ل: «وحزما» والمثبت رواية م.

وعظمته وصدارته، إلى أن أظهر اليد البيضاء، وكمال التدبير والمضاء، بحيث تحيّر العقلاء فى ثبات جَأْشه، وعدم نفرته واستيحاشه، وضبط الجيش الأعظم، وحفظ الخميس العَرَمْرَم، وهم فى أرض العَدُوّ فى حومة القتال، وقوة الحرب والصيال، وشدّة الجلاد والجدال.

وقد توفى السلطان سليمان فى ذلك الحال، فلم يقع شىء من الاختلال، وانتظمت الأحوال، وأخذت قلعة سكتوار من القرال، وهى محشوة بالعدد والعُدَد من الإفرنج الأبطال، والسلطان فى السكرات والغمرات، وكتم ذلك عن جميع خُدَّامه ومن حوله من الأغوات، وأرسل إلى ولده السلطان سليم من مسافة ستّين يومًا وأجلسه على التخت وما وضعت الحرب أوزارها، بل أضرمت المجاهدون نارها، وغنمت المسلمون وخُذلت النصارى بأنصارها.

ثم عاد العسكر وقد انتصر الإسلام، وانهدّ ركن الأصنام، وخذل اللهُ فى هذا الحال طوائف الكفار اللئام، وكان ذلك الاحتيال والترتيب، بتدبير هذا الوزير الحاذق الفطن اللبيب، ورأْيه المنير الثاقب المصيب، وتداركه بما يجب تداركه بالقلب الرحيب، وكلُّ ذلك بالإلهام والإمداد من الله القريب الرقيب، هذا مع كثرة إحسانه وتواتر إنعامه، وتوالى إلطافه وإسعافه وإكرامه، سيّما أهل الحرمين الشريفين والتصدُّق عليهم، والنظر باللطف والرأفة إليهم، والإنعام فى كل عام على عموم الفقراء والصلحاء بألف دينار فأكثر للصدقة من عين ماله، وإعماله الخير فى الحرمين الشريفين من إجراء عيون وحفر آبار وأَرْبِطَة وأبنية للفقراء وغير ذلك من المآثر الجميلة، والخيرات الوافرة الجزيلة، التى تحتمل أن تفرد بالتأليف، وتُورَد فى تصنيف، جليل لطيف.

وله مآثر فى أكثر بلاد الإسلام، وقد أجرى عين الزرقاء بالمدينة الشريفة بعد ضعفها، وأضاف إليها آبارًا منها بِئر أَرِيس - وهى بفتح الهمزة وكسر الراء وبسكون الياء المثناة التحتية وإهمال أخرى - معروفة بقُبَاء من أعذب آبار المدينة ذكر المجد الفيروزآبادى أن النبى ﷺ تَفَلَ فيها، ووقع فيها خاتم النبى

ﷺ من يد سيّدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهو جالس على حافة البئر، وقد نزع الخاتم الشريف من يده فسقط فى البئر فأنزل فيها رجالاً ليخرجوه فلم يظفروا به، وركّب عليها اثنى عشر ناضحًا لينزحها فغلبهم الماء ولم يوجد الخاتم.

وكان أول الفتن إلى أن أدت إلى شهادته، واختلف الناس على سيّدنا على رضى الله عنه وسند هذا الفتن إلى ذهاب خاتم النبى ﷺ.

واعلم أن فى عصرنا جعل حضرة الوزير الأعظم دبلاً من مائها إلى مَصَبّ عين الزرقاء وأصرف على ذلك أموالاً عظيمة فقوّيت العين وأضاف إليها مياه آبار أخرى حلوة قَوّى بها جريان عين الزرقاء إلى أن أجرى دبلاً منها إلى باب الرحمة، وجعل فيها موضعًا يتوضأً فيه الناس لدخول المسجد الشريف، وأجرى دبلاً منها إلى حمّام عظيم تكلّف بناءه فى المدينة الشريفة، انتفع به أهل المدينة الزُّوّار ودعوا له بالخير وصار ثوابًا جاريًا.

ومن خيراته أنه وسّع بئر ذى الحُلَيْفة ويقال لها بئر علىّ، وهو ميقات أهل المدينة وأهل الشام للإحرام لدخول مكة، فحفرها ونزل فى الأرض إلى أن جعل وجه الماء عشرًا فى عشر لِئَلاً ينجس بوقوع النجاسة فيها، وجعل أحد جوانبها الأربعة درجًا ينزل من أعلاه إلى أسفله حيث كان محلُّ الماء، فصار كلُّ واحد يرد إليه بسهولة بلا تكلُّف ولا احتياج إلى دَلْوٍ وحبلٍ ونحو ذلك، وهذا خير عظيم جزيل وثواب كبير جميل لا ينقطع أثره.

ومنها أنه أمر أن يُبنى له بمكة المشرفة قرب الحرم الشريف موضعٌ يكون مَأْوَى للفقراء صونًا للمسجد الحرام عنهم، وأن تُبْنى فيه مساطب ومباسط تصلح للمرضى فتكون دار الشفاء لهم، وأن تُبْنَى من خارجه دكاك وبيوت تكرى وتصرف فى مصالح هذا المكان.

وأمر ببناء حمام فى وسط البلد عظيم الشأن طيّب الماء والهواء، وله رباط أيضًا وخيرات أخرى كلُّها مثوبات عظمى، ووردت صدقاته فى سنة أربع وثمانين وتسعمائة مضاعفة، ففرقت فى الحرم الشريف على الفقراء

والضعفاء، وتضاعف الدُّعاء منهم لحضرته الشريفة ولنجله السعيد بلّغه الله تعالى مراتب الكمال، ورزقه السعادة والإقبال، والله تعالى يطيل بَقَاءه، ويديم عِزَّهُ وعَلاَءَه، ويثبت وزارته العليا، ويبقيه فى صدر الصدارة الكبرى ما دامت الدنيا، محفوظًا بالملائكة الكرام، محروسًا بعين الله الحىّ الذين لا ينام، مصونًا من نوائب الليالى والأيام:

وهذا دعاء شاملُ النفع للورَى فيا ربّ قابلْ بالقبول دعائى

* * *

فصل: فى ذكر غزوات السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان

كان السلطان المرحوم المغفور محبًا للجهاد فى سبيل الله، باذلاً نفسه وخزائنه لإعلاء كلمة الله، يؤثر التعب فى ذلك على الراحة، ويحبُّ الغزو ويرغب إليه عن الاستراحة، بحيث لم ترتفع راية الإسلام، على رأس أحد من السلاطين العظام، أكثَرَ جهادًا ونصرة للدين، وأكمل عدّة وآلة لقطع دابر المشركين، وأكبر مُلْكًا وسلطانًا، وأكثر جيوشًا وأعوانًا، وأقطع سيفًا وسنانًا، وأحمى للإسلام وذويه، وأنفى للشرك ومنتحليه، وأعدى للإفرنج اللعين، وأقمع للكفرة والملحدين، وأقوى نصرة للإسلام والمسلمين، وأشدّ عضدًا لأهل الإيمان، وأنصر لأهل السُّنَّة فى هذا الزمان، من السلطان سليمان، فكم دوّخ بلاد الكفر واستباحها، وداس أرض الأعداء بحافر فرسه واجتاحها، وجاس خلال مغانيها ورباعها، وافتتح صياصيها وقلاعها، وأخرب مَعاهد الأصنام، وبنى مساجد الإسلام، فلو نُشِرَت صحائف الدُّوَل، لكانت دولته غُرَّة تلك الدُّوَل، ولو عُدِّدَت فتوحات السلاطين لكانت مَساعيه طراز تلك الحُلل، وإن غزواته يجب إفرادها بالتأليف، ليبقى فى صفحات الدهر ذكره الشريف، وأمَّا هذا التصنيف اللطيف، فلا يَسَعُ منها

إلا الطفيف، فنذكرها إجمالاً فى هذه العُجالة، ونعدّد أسماءها فى غُضُون هذه الرسالة، فإن فسح الله فى الأجل، وساعد العمر على ذلك الأمل، حرْرنا لآل عثمان تأليفًا جليلاً، وكتابًا حافلاً طويلاً، يستفيد فيه علماء العرب والعجم، ما لا يجدونه فى كُتُب تواريخ الأُمَم، إن شاء الله تعالى.

فأقول:

• **أول غزواته عندما ولى السلطنة: غزوة إنكروس[1]:**

برز إليها من القسطنطينية العظمى لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرّار، وجيش كَرّار، عظيم المقدار، يَدُكُّ الأرض دكًا، ويَصُكُّ الجبال الراسيات صكاً، فلمّا وصلوا إلى ديار الكفار جاسوا خلالها، ونازلوا أبطالها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، ونهبوا متاعها وأموالها، وفتحوا حصونها وقلاعها، وملكوا أرضها وبقاعها.

وأعظمُ ما افتتح من القلاع بلغراط[2] وهى قلعة منيعة محكمة باقية إلى الآن بيد المسلمين، وأخذوا غيرها من بلاد المشركين، وغنموا الغنائم الكثيرة، وأثروا الإثارة الأثيرة، وعاد السلطان إلى دار مملكته سالمًا غانمًا مظفراً منصوراً، مؤيدًا بنصر الله ظافراً مسروراً، وزينت البلاد لانتصاره، وفرح المسلمون، وكان من أنصار الله، وذلك أول فتوحاته، وغُرَّة أسفاره وغزواته، وكان عوده إلى سرير ملكه فى شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة[3].

وفى هذا العام عَصى جان بردى الغزالى الجركسى أمير الأمراء بالشام، وجمع طائفة من عُصاة العرب وبعض أشقياء الجراكسة وادّعى السلطنة وخطب لنفسه، فجهّز عليه فرهاد باشا فقاتله فى قرب الصالحية وأمسكه

---

(١) أى بلاد المجر.

(٢) هى بلغراد اليوم.

(٣) المنح الرحمانية ص ١١٠.

وقطع رأسه، وأرسل بها إلى الباب العالى وكفاه الله أمره، ودرأ عن المسلمين فتنته وشرّه، وذلك لسبع مضين من شهر صفر سنة ثمان وعشرين وتسعمائة.

• **الغزوة الثانية: غزوة رودس[1]:**

وهى جزيرة فى وسط البحر ما بين إسطنبول ومصر، وبنى بها الكفار حصنًا حصينًا، وحصاراً فى غاية الاستحكام مكينًا، اتخذه الكفار مكمنًا لأخذ المسلمين، وأتقنوه غاية الإتقان والتمكين، بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين، وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبُطَين، ينظرون من أعلى القلعة إلى السفائن التى تمرّ فى البحر من مسافة بعيدة فيتهيئون للتحصين، إن كان ذلك عسكراً من المسلمين، ويأخذونهم إن كانوا من سُفَّار البحر واتخذته النصارى مَعْبَدًا يجهزون إليه أموالهم لتصرف فى استحكام بنائه وإتقانه، وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوبًا وضعوا فيها المدافع الكثيرة ترمى على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جهة من الجهات، ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب، ويهيئون أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة إذا أحسّوا بسفينة فى البحر من الحُجَّاج أو التجار أخرجوا إليها تلك الأغربة[2] وأخذوها ونهبوا ما فيها من الأموال وأسروا المسلمين، فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم.

وكان هذا دأبهم، وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعَمَّ أذاهم المسلمين، فتجهز السلطان سليمان بعسكره المنصور إلى أخذ هذه الجزيرة، وكان مسيره الميمون إليها ونزول مخيّمه الشريف فى أسكودر متوجّهًا إلى هذا

(١) انظر فى غزوة رودس: المنح الرحمانية ص١١١.

(٢) جمع غراب: سفينة من سفن البحر القديمة.

الغزو لعشر بقين من رجب المرجَّب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها فى شهر رمضان من السنة المذكورة، فأحاط بها برًا وبحرًا وما أمكن من فى البرّ أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذى حولها مع صونه بالمدافع العظيمة من أعلى الحصار، ولا أمكن من فى البحر القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد فى البحر والرمى على من يقربها بالمدافع الكبار، فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا تصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصار وعدم تأثير المدافع فيه[١].

فتأخّرت عساكر البر قليلاً، وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبال وتترّسوا بها وصاروا يقدّمونها قليلاً قليلاً إلى أن وصل التراب إلى الخندق وامتلأ به وقرب من جدار الحصار وارتفع عليه، وصار الكفار الفجار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون ورموا عليهم النار وأحرقوهم بنار الدنيا قبل نار الآخرة إلى أن عجزوا ووهنوا وتحقّقوا أنهم مأخوذون، فطلبوا من السلطان سليمان الأمان، وشرطوا أن يحملوا نساءهم وأطفالهم وأولادهم ونقودهم ويعزموا أين أرادوا ولا يتعرّض لهم أحد من الجند، فأجابهم السلطان إلى ذلك بعد أن نهاه الوزراء عن أمانهم فإنهم لم يبق لهم منعة ولا قوة وأن الأموال التى أرادوا حملها خزينة كبيرة وأن هؤلاء الكفار إذا نجو بهذه الخزينة أمكنهم التقوّى بها وجمع العسكر من النصارى والعود إلى أذى المسلمين، فلم يَصْغ السلطان إلى عذلهم ومنعهم وأعطاهم الأمان[٢].

وخرجوا بجميع أموالهم وما يعزّ عليهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا إلى بلاد المغرب، وعملوا قلعة فى مملكة إسبانيا من جزيرة الأندلس فى غاية الحصار والمتانة، ويقال لها مالطة، وصاروا يؤذون المسلمين ويقطعون الطريق على الحجّاج والسُّفار، وهم الآن وإن بَعُدُوا عن المسلمين إلا أن أذاهم كثير وإفسادهم عظيم[٣].

(١) المنح الرحمانية ص١١٢.

(٢) المصدر السابق ص١١٣.

(٣) المنح الرحمانية ص١١٣.

وقد ندم السلطان سليمان على إعطاء الأمان لهم، وأرسل إليهم عمارة عظيمة بعسكر كثير لأخذهم واستئصالهم آخر عُمره وجعل عليهم مصطفى باشا الوزير الإسفنديارى سردارًا[١] فوقع بينه وبين القابودان[٢] مخالفة أدّت إلى انكسار المسلمين، وكان فى ضمير المرحوم تدارك هذا الأمر وإرسال عسكر آخر لأخذ مالطة وقهرها فما أمهله العمرُ رحمه الله تعالى، وكان فتح رودس لستّ مضين من شهر صفر الخير سنة تسع وعشرين وتسعمائة[٣].

وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم، وعمل الناس لذلك تواريخ ألْطَفُها: يفرح المؤمنون بنصر الله.

وفتحت أيضًا عدَّة قلاع فى ذلك العام، منها قلعة إستان كوى، وقلعة بودرم، وقلعة أودوس، وغير ذلك من القلاع أُخذت من الكفار الفجار وصارت فى ضبط العساكر المنصورة السليمانية، وأرسل السلطان من وزرائه فرهاد باشا مع عسكر إلى على بك بن شهسوار أمير أمراء دلغار، فإنه كان يُظهر الطاعة ويُبْطِنُ العصْيان فاستدعاه إلى عنده وأظهر أنه وصلت إليه خلع شريفة سلطانية وتشاريف فاخرة خاقانية له ولأولاده، فوصل إليه على بك بن شهسوار مع أولاده الخمسة فأدخلهم فرهاد باشا إلى محلّ خلوته وأمر بقتلهم فقُطعت رءوسهم وجُهّزت إلى الأبواب العالية وضُبطت بلاده، وكفى الله تعالى شرَّه وذهب فساده، وكلّ ذلك فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة ثم عاد السلطان من سفره الميمون إلى تخت ملكه الشريف إسطنبول دار الإسلام، لا زالت معمورة إلى يوم القيام، ووصل إليها فى آخر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وتسعمائة.

وفى هذا العام خرج كاشف الشرقية الأمير جانم الجركسى عن الطاعة وخرج معهُ كاشف البحيرة إينال بك، واجتمع عليهما طائفة من الجراكسة

(١) لقب القائد الأعلى للحملة العسكرية عندما لا يقودها السلطان بنفسه.

(٢) القابودان: تعنى رئيس عسكرى، وقد أطلقها الأتراك على القائد الأعلى للأسطول العثمانى.

(٣) المنح الرحمانية ص١١٣.

المناحسة، وجماعة من عُصاة العربان الأبالسة، وأظهروا العصْيان، وأبْدوا الخلاف والطغْيان، فأرسل عليهم بكلاربكى مصر يومئذ مصطفى باشا عسكراً فقاتلوا فقُتلا وقُطعت رأسهما وعُلّقتا[1] بباب رويلة، ثم أُرسلت إلى الأبواب العالية، وكانت فتنة درأ الله شرَّها، وكفى الله المسلمين أمرها، وذلك فى المحرّم سنة تسع وعشرين وتسعمائة.

• الغزوة الثالثة: عود السلطان سليمان إلى كفار إنكروس ثانيًا:

فإن ملك إنكروس المسمى قرال، ظهر منه الخلاف والجدال، فتوجّه إليه لقطع جادرته ومَحْو أثره وعاديته السلطان المرحوم بالجيش الأعظم والخميس العرمرم، وضرب أوطاقه المظفر فى حلقة لوبكار لإحدى عشرة ليلة مضت من رجب المرجّب سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، ثم رحل بالعساكر المنصورة إلى أن وصل إلى نهر طراوة وبنى عليه جسراً من السفائن، وعدّى بعسكره المنصور على الجسر واستمرّ إلى أن وصل بُودُون، وقاتل القرال الملعون، لعشر بقين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، وفى ذلك الحرب الشديد، انكسر قرال الكافر العنيد، وانتصرت جيوش الإسلام، وتفرّقت عباد الصليب والأصنام، وافتتحت فى هذه الغزوة عدّة من القلاع المشهورة والحصون الشديدة المعمورة، وصارت من جملة مضافات الممالك الشريفة السلطانية، والأقاليم المحروسة الخاقانية، من جملتها قلعة أونيك، وقلعة بترواردين وقلعة إيلوق، وقلعة راجة، وقلعة برقاص، وقلعة بوكاى، وقلعة زكتوار وغيرها من قلاع الكفار، وحصون أولئك الفجار، وأعظمها قلعة بودون، محلُّ تخت إنكروس المعلون، فإنها قلعة راسخة البناء، عالية الفضاء، سامية إلى عُنوان السماء، تُناطح الثرياء، وتسامى السُّهَا، وتطاول الجوزاء، فى غاية الثبات والإتقان، واستحكام الوضع والبنيان، وهو تخت سلاطين إنكروس، ومقرُّ سلطنة ملكهم المنحوس، وعندما أحاط بها حضرة

(١) فى ل: «وقطعت رءوسهما وعلقت» والمثبت رواية م.

السلطان، وجنود أهل الإيمان، علم من كان فيها من جنود الشيطان، فخرجوا منها وهربوا وطلبت الرعايا الأمان، فأمنهم حضرة السلطان، وضبط البلاد ووضع فيها عساكر لحفظها من أهل العدوان، وغنم كثيراً من الأموال والأنفس والأرواح، وفتك بأعْداء الإسلام وسفك دمهم المطلول المباح، وعاد إلى مقر سلطنته ودار مملكته سعيداً، مظفراً منصوراً حميداً، فوصل إلى سرير السعادة، وتخت الملك والسيادة، فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة.

● الغزوة الرابعة: غزوة بج:

اجتمعت كفار ألمَان، ونمجه قرال وفرندوس وأغاروا على قلعة بُودُون وأخذوها من المسلمين على غرّة، فتوجّه السلطان إلى دفعهم وقلعهم وتشتيت جمعهم، وبرز من إسطنبول إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمرّ راحلاً إلى أن وصلت إلى المخيّم العالى امرأة من ملوك إنكروس اسمها أردل بانو وداست البساط الشريف السلطانى والتزمت بأداء خراج بلاد إنكروس كل عام، فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها الأحكام الشريفة بالأمان وعادت إلى بلادها فى أواسط ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة، واستمرّ الوطاق[1] الشريف السلطانى إلى أن وصل العسكر المنصور الخاقانى إلى قلعة بودون، فأحاطوا به إحاطة الأطواق بالأعناق، وبياض العين بسواد الأحداق، فى أواسط ذى الحجّة من السنة المذكورة إلى أن فتح الله بُدون وسائر البلاد، وخذل أهل الكفر والعناد، وولّوا هاربين ومأسورين ومقتولين بعد الحرب الشديد لأربع مضين من المحرم الحرام سنة ست وثلاثين وتسعمائة.

ثم افتتحت قلعة بتاق حصارى، ثم توجّه العسكر المنصور إلى قلعة بج

(١) لفظ تركى، معناه: الخيمة الكبيرة.

وهى محلٌّ تخت نمجه القرال الخائب الآمال، وأحاط بها مخيّم سرادقات الفتح والنصر القريب، بالعسكر المنصور المظفّر من عند الله القريب المجيب، وهرب منها نمجه قرال المزبور، وهو مدبر مكسور، وطلب أهل القلعة الأمان، وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة السلطان، فأعطاهم الأمان، وأخذ قلعة بج وهى من أعظم قلاع الكفار المحكمة الراسخة القرار، الرفيعة المنار، وذلك لليلتين بقيتا من المحرم الحرام سنة ست وثلاثين وتسعمائة، ولما كانت القلعة المزبورة بعيدة عن حدود ممالك الإسلام، غير مأمونة عن هجوم الكفار اللئام، أمرت الحضرة السلطانية بهدمها، فهُدمت وأُخربت ونُهبت أطراف تلك القلعة وسُبيت أولاد النصارى ونساؤهم وتُركت خرابًا، وعادت الحضرة السلطانية إلى تخت الملك بالنصر والتَّأييد والعزّ المشيد، والفرح الجديد، فوصل إلى إسطنبول فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة.

• الغزوة الخامسة: غزوة ألمَان:

لمّا وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن نمجه قرال جمع طائفة من كفار أَلَمان، وأراد الفساد والطُّغيان، توجّه السلطان سليمان الغازى فى سبيل الله إلى قتل هذا الكافر اللعين، وحَكَّ اسمه من صحيفة الوجود بعون الله الملك المعين، وبرز من دار الإسلام إسطنبول إلى حلقة لوبكار لعشر ليال بقين من شهر رمضان المبارك عام ثمان وثلاثين وتسعمائة، وأرسل فى البحر لحفظ وجه البحر من النصارى وضبط الأسافل والسواحل أمير الأمراء الكرام أحمد باشا القبودان بثمانين غرابًا مشحونًا بالأبطال لأهل الصفاح والكفاح، تطير إليهم بأَجْنحة الرياح، من غير جناح، فى أوائل شعبان الكريم من السنة المذكورة، وافتتح عدة قلاع من بلاد الإفرنج الفجار، وأرغبوا الكفار، واستعجلوا بهم إلى عذاب النار، ووصل المخيّم الشريف السلطانى، مع الجيش المنصور الخاقانى، إلى مملكة أَلَمان وخروات وسبوا من ذرارى الكفار أولادًا كالنجوم الدرارى، ومن البنات والنساء خرايد كالكُنَّس الجَوَارى،

ونهبوا الأموال، وقتلوا الأبطال، ودهكوا الرجال، وهربوا ملوكهم، وتركوا غنيَّهم وصُعْلوكهم، وبذلوا ما بقى معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام، فأُجيبوا من جانب السلطنة الشريفة إلى سؤَالهم، وكتب لهم بذلك توقيع الأمان لترقيع حالهم، وعادت الحضرة الشريفة السلطانية السليمانية إلى دار ملكها المسعود، مظفّر الجنود، سعيد الجدود، فى أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة.

• الغزوة السادسة: غزوة عراق العجم:

أرسل قبل سفره الميمون الوزير الأعظم إبراهيم باشا بعكسر معظم، وجيش كالبحر الغطمطم، وفئة كبيرة كالخميس العرمرم، لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وتسعمائة، ووصل إلى حلب وشَتَّى بها هو ومن معه من العساكر المنصورة السليمانية، والجيوش المؤيّدة الخاقانية، وبرز عقبه الوطاق الشريف السلطانى، والمخيّم المكرم الخاقانى العثمانى إلى أسكودر آخر شهر ذى القعدة الحرام سنة إحدى وأربعين وتسعمائة، واستمرّ متوجّهًا لنُصرة السُّنَّة الشريفة السنيّة، وقمع طوائف الرافضة البذيّة، إلى أن وصل مخيّمه الشريف العالى إلى بيلاق أوجان قريب تبريز، وجاء إلى استقباله الوزير المعظم إبراهيم باشا بمن معه من العسكر المنصور، وتوجَّها بجميع العساكر المنصورة إلى أخذ سُلْطانية من مملكة العجم.

فلما وصل الركاب الشريف السلطانى إلى قصبة أَبْهَر هرب من طائفة القزلباش محمد خان بن ذى الغادر ووصل إلى لثم البساط الريف العثمانى فحصل له التشريف الشريف والإنعام، وقُوبل بالتكريم والإكرام والاحترام، وصار من جملة عبيد الباب، واستولى البرد الشديد على العسكر المنصور ونزل الثلج كأنه الجبال وهرب العدوُّ ولم يقابل، وصار يخادع ويخاتل، فلزم التوجّه إلى بغداد لصون الرجال والأبطال، فلمّا سمع بوصول العسكر المنصور السلطانى حافظ بغداد من جانب قزلباش محمد خان هرب وترك

بغداد ومن بها من الرعية فجاءوا بمفاتيحها إلى الوطاق الشريف السلطانى، فنزل بعسكره المنصور فى بغداد وأعطى أهلها الأمان، واستكنّوا فى كنّها وصارت من مضافات الممالك الشريفة العثمانية، وكذلك جميع ما حولها من البلاد والبقاع، وسائر الحصون والقلاع، وكذلك بلد المشعشع والجزائر وواسط.

وأمرت الحضرة السلطانية بتحصين قلعة بغداد، وحفظها وصونها من أهل الإلحاد، وزار مشهد سيّدنا الإمام الحسين، وسيّدنا الإمام موسى الكاظم رضى الله عنهما ونوّر مرقدهما، ونفع ببركاتهما وبركات أهل بيت رسول الله ﷺ وأمر بتعميرهما وتكريم مزارهما الشريف، وزار الإمام أبا حنيفة النعمان ابن ثابت رضى الله عنه وبنى على قبره الشريف قبّة وعمارة ومدرسة.

وصلب فى بغداد دفتر داره المرحوم المغفور الشهيد السعيد إسكندر جلبى بتهمة الخيانة فى المال السلطانى برمى أعدائه وحُسّاده وبراءته من ذلك عند الله وعند الناس، وكان كريمًا بَذولاً حسن الخُلق محسنًا ما خاب من قَصَدَه ولا حرم من أمّله مع الفضل التامّ والكرم العامّ، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى، وبَوّأه من الجنان الدرجات العلا.

ويتّهم الوزير إبراهيم باشا برَمْيه بما رمى به، وما حال عليه الحول حتى أُلحق به، واجتمعا فى دار الحقّ بين يدى الحكم العدل اللطيف الخبير.

ثم توجّه الركاب الشريف السلطانى بعد مضىّ شدّة الشتاء لليلتين مضتا من شهر رمضان المبارك إلى ناحية تبريز، لأنه بلغه أن الشاه شتّى فى تبريز وأنه مقيم بها فقصده للقتال، ومَحْو أثره من صحائف الأيام والليال، فلما وصل إلى منزل صاروقامش وصل من الشاه ومن تاج لوخانم أيلجيًا[1] يطلب الصلح، فلم يقابل بالقبول وتوجّه إلى تبريز، فخرج الشاه وطائفة القزلباش من تبريز إلى الأطراف والجهات وتركوا شهر تبريز خالية خاوية على عروشها

(١) أيلجى: كلمة فارسية بمعنى رسول، درجت على ألسنة الناس فى العصور الإسلامية المتأخرة بهذا المعنى، واستمرت حتى نهاية العصر العثمانى.

وتبعهم العسكر المنصور فما ظفروا بهم، وصار الشاه ينتقل من مكان إلى مكان وتكرّرت رُسُله إلى الأبواب العالية بطرق باب الصلح وتحقّق حضرة السلطان الأعظم أن الصلح خير فقبل الصلح وكتب الأجوبة بقبول ما طلبه وانطوى بساط الحرب، وتوجّه المخيّم الشريف السلطانى إلى العود من بلاد العجم وغنم السلطان فى تلك السفرة أخذ البلاد وفتح عراق العرب وأَلْطف تاريخ قيل فيه: فتحنا العراق.

وكان وصول الركاب الشريف السلطانى، مع العسكر المظفر العثمانى، إلى محلّ التَّخْت الشريف الخاقانى، مع النصر والتَّأييد الربانى، والفتح والظفر العظيم السبحانى، لأربع عشرة ليلة مضت من شهر رجب المرجب سنة إحدى وأربعين وتسعمائة.

• الغزوة السابعة: غزوة أُولونية المعروفة بكورفس:

وهى بلاد الكفار الفجار، من أتباع أصبانيا الغَدَّار، توجّه إليها فى البرِّ بركابه الشريف العالى، وأرسل من البحر لُطْفى باشا والقابودان خير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر، إلى أن نزل بمخيّمه المنصور على أُولُونية فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فاستباحها قتلاً وأَسْرًا ونهبًا، وافتتحت من جزائر ذلك البحر أربعة وثلاثون حصنًا حصينًا هُدمت إلى الأساس، وقُتل من فيها من الناس، وغنمت جيوش المسلمين، من طائفة الكفار الفجار المشركين، ما لا يُحْصَى من الأموال والسبايا وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهّزة برًا وبحرًا إلى تخت الملك الشريف سالمين غانمين، والحمد لله ربّ العالمين.

• الغزوة الثامنة: غزوة قره بغدان:

توجه بنفسه النفيسة لافتتاح تلك البلدان، وبرز بعسكره الجرّار، لقتال الكفار الفجار، بالسيف والنار، ووصل ركابه الشريف إلى تلك البلاد، وقتل

فيها وفتك، وأسال الدماء وسفك، وافتتح القلاع، وأخذ الرقاع والبقاع، وغنم أموالاً ومغانم كثيرة، وأسر نفوسًا عديدة غير محصورة، وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيّدًا من عند الله بالنصر والتأييد، والفتح الجديد، فوصل إلى دار الإسلام القسطنطينية الكبرى لستّ ليال بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وتسعمائة.

• الغزوة التاسعة غزوة اسطوبور من بلاد إنكروس:

وذلك أن السلطان رحمه الله كان قد أنعم على أردل بانو بتلك البلاد وبلغه أنها هلكت، وأن نمجه قرال ومن معه من الكفرة الفجار أرادوا الاستيلاء على بلادها بعد موتها، فتوجّه السلطان رحمه الله إلى دفع أولئك الكفار الفجار سنة ثمان وأربعين وتسعمائة، وصمّم على قتال نمجه قرال لأنه أراد أخذ بودن ووَسوَسَت له نفسه ما يتخيّله المفسدون، فلمّا أحسّ بوصول العسكر المنصور السلطانى فرّ هاربًا إلى الجبال، وتقهقر عن القتال، فتبعته الأبطال، ففرّ منهم فى أطراف تلك المحالّ، فجالت العساكر المنصورة السلطانية فى تلك البلدان، وقتلوا أهل البغى والعدوان، وفتكوا بجيوش الكفر والطغيان، وسبوا الأولاد والأطفال والنسوان، وتركوا ديار الكفر قاعًا صَفْصَفًا، وغنموا مغانم كثيرة وذخائر تُخْتار وتُصْطَفَى، وفتحت قلعة اسطوبور بقرب بودون بعد الحرب الشديد، وأضيفت إلى الممالك السلطانية وضُبِطَت وحُفِظَت، وفُتحت أيضًا قلعة وشوه وقتل من الكفار ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وعادت الحضرة الشريفة السلطانية بمن فى ركابها الشريف من العساكر المنصورة العثمانية إلى مقرّ تختها الشريف، منصورين مؤيدين بتأييدهم الدين الحنيف.

• الغزوة العاشرة: غزوة بج واسترغون:

توجّه الركاب الشريف السلطانى، والمخيّم المنصور السليمانى، إلى افتتاح عدّة قلاع فى بلاد بج لتنظيف أطراف البلاد، من طوائف الكفار أهل العناد،

وقطع دابر أولئك الفجار بالغزو والجهاد، فى سنة خمسين وتسعمائة، وبرز فى دار الملك إسطنبول، بالجيش المتواتر الموصول، والجند الأعظم المهول، إلى أن أحاط بقلعة والبوه وقلعة شقلاوس وهما من أحكم القلاع السامية وأعظم الحصون المرتفعة العالية، تناطح النطح وتسامك السماك وتوازن الميزان، فافتتحتا فى غرّة ربيع الأول من ذلك العام، وصارت من مضافات ممالك الإسلام.

ثم افتتحت قلعة استرغون، وهى قلعة فى غاية الإتقان والاستحكام، أشدُّ فى إحكام البنيان من الأهرام، كأنّ قنديل سقفها نجوم الثُّريَّا، وحارس بابها كواكب العَوَّاء، ونطاق منطقها وشاح الجوزاء، مشحونة بالأموال والذخائر، مملوءة بالعُدد والعَدَد الوافر، ألقى الله تعالى فى قلوب أهلها رعب عساكر الإسلام، وخذلهم الله تعالى فما عصمهم ذلك الحصن المنيع وما وجدوا الاعتصام، فأُخذوا أخذًا وبيلاً، وأُسروا وقُتلوا تقتيلاً، ونُهبت الأموال، وسُبيت النساء والأولاد والأطفال، وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع.

وافتتح ما بقربها من الحصون والقلاع، وكذلك فتحت قلعة استولين بلغراد، وهى قلعة سامية العماد، راسخة الأَوْتاد، لم يُخْلَق مثلها فى البلاد، كأنّها من بناء شَدَّاد بن عاد، أُخذت وضُبطت وعيّن لها ولغيرها من القِلاع الحُفَّاظ النُّبلاء الأيقاظ، ونصب لكلّ منها دزدارًا[1] وحصاريّة وقاضيًا يجرى الأحكام الشرعية، وسنجقًا للاستحفاظ وصارت من مضافات الممالك المحروسة السلطانية، وصارت الكنائس مساجدَ للصلاة والعبادات، والبيع مشاهدَ للخيرات والطاعات، وعاد الركاب الشريف السلطانى، إلى سرير ملكه وتخته الخاقانى، مظفّرًا منصورًا، سالمًا غانمًا مسرورًا.

(١) دزدار: لفظ تركى مركب من: دز، بمعنى: قلعة، و: دار، بمعنى مالك أو صاحب، تطور مدلوله ليصبح فى العصر العثمانى لقبًا يعرف به كبير ضباط القلعة وقائد حاميتها العسكرية.

• **الغزوة الحادية عشرة: سفر القاس:**

وهى تحتمل تفسيراً طويلاً لا تحتمله هذه العجالة، فنعدل عن الإسهاب والإطالة، ومجملها أن القاس أخا الشاه لأبيه كان واليًا على شروان، فوقعت بينهما مشاجرة ومشاحنة فى الباطن أدّت إلى أن توجّه القاس إلى الأبواب الشريفة السلطانية، وقبّل اليد الكريمة السليمانية، فحصل له من الحضرة السلطانية إقبال عظيم ومرتبة عليّة، وأنعم عليه بالإنعامات الجليلة السنية، ووعده بأن ينصره على أخيه ويُدانيه، ويُعْلى كلمته ويواليه، وأمر الوزراء العظام، وأركان دولة الإسلام أن يقدموا له الهدايا الجزيلة، والتُّحَف الوافرة الجميلة، ففعلوا ذلك وجابروه، وأزّروه وعظّموه ونصروه، وكان ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، واستمرّ ملتجئًا إلى الظلّ الوريف الشريف، الممدود على القوىّ والضعيف، وصار يصاحبه ويلاطفه، ويقربه ويستدنيه ويوالفه، إلى أن صمّم العزم الحزم، وشدّ نطاق الصرامة والحَزْم، وبرز بعسكر المظفّر، ونصب أوطاقه فى اسطودر، لثمان ليال مضين من شهر صفر الخير سنة خمس وخمسين وتسعمائة، ومعه القاس ميرزا مكرّمًا تكريمًا ومعزّزًا تعزيزًا، وتوجّهت الحضرة الشريفة السلطانية إلى أخذ تبريز، وأمر القاس ميرزا أن يشتّى فى بغداد، إلى أن يمضى زمان الشتاء، فهجم بالعساكر المنصورة إلى بلاد العجم واستمرّ الركاب الشريف السلطانى، سائرًا بالعون السبحانى، والنصر والفتح الربانى، إلى أن أخذ قلعة وان وحصنت بعساكر أهل الإيمان، وجعل فيها بكلاربكيًا وعسكرًا قويًا فإنها قفل ديار العجم، وحصّنها بآلات الحصار والخَدَم، واستمرّ القاس ميرزا متوجّهًا إلى بغداد ثم توجّهَ ببعض العساكر السلطانية إلى دَركَزِين ووصل إلى همذان، وتعدّى منها إلى أذربيجان، ونهب تلك البلدان، واستلب أوطاق أخيه سام ميرزا وعاد إلى المخيّم الشريف السلطانى، والوطاق المحفوظ الخاقانى، بما نهبه من الأموال، وحصل له غاية الاعتبار والإقبال.

وغلب برد الشتاء فشتّى حضرة السلطان بالمخيّم الشريف السلطانى فى

حلب، وجهّز جيشًا كثيفًا مع أحمد باشا لحفظ حدود البلاد، وغزا طائفة الكرجى واغتنم منهم غنائم وعاد إلى الوطاق الشريف السلطانى بغنائمه.

وأمّا القاس ميرزا فنابذ بعض الوزراء فخرج من بغداد مغاضبًا وأظهر النفور من جانب السلطنة الشريفة، ولم يراع الأيادى الجميلة السابقة واللاحقة، وعزم إلى أمير من أمراء الأكراد فعلم به أخوه فأرسل إليه وخادعه واستدعاه إلى عنده، فلمّا أتاه دلاه فى بئر وطمّ أثره ومحا ذكره، فرُزق الشهادة ولحق بالشهداء، وإلى الله المصير.

ولما وصل علم ذلك إلى الحضرة الشريفة السلطانية تَأَسَّفَ على ذهابه وعزل ذلك الوزير عزلاً مؤبّدًا، وعادت العساكر المنصورة السلطانية، فى ركاب الحضرة السليمانية، إلى دار ملكها السعيد بالنصر والتّأييد، والسعد الجديد، والعزّ المشيد، فى أواخر سنة خمس وخمسين وتسعمائة.

• الغزوة الثانية عشرة: سفره إلى بلاد الشرق:

لمّا بلغ الحضرة الشريفة السلطانية تحرُّك طائفة القزلباش على بعض الحدود السلطانية من جانب الشرق، بادرت الحضرة السليمانية بجيوشها المنصورة العثمانية إلى أن تشتّى فى مدينة حلب، وبعد انقضاء زمن الشتاء يتوجّه إلى أخذ بلاد قزلباش، فبرز الوطاق الشريف السلطانى من دار الإسلام القسطنطينية العظمى إلى أسكودر فى أوائل شهر رمضان عام ستين وتسعمائة واستمر إلى أن وصل إلى أركلى يقطع المراحل والمنازل فاستقرّ أوطاقه العالى خارج أركلى واستدعى ولده السلطان مصطفى فامتثل أمره الشريف ووصل إليه ودخل إلى خركاهه[1] العالى، فما برز إلا فى تابوت حمل على الأعناق إلى بروسا ودفن بها، وأتبع به ولده ودُفن معه فى بروسا أيضًا عليهما الرحمة والرضوان، وروائح الروح والريحان، ووقع ذلك فى أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة، وقد قدمنا شرح ذلك.

(١) خركاه: سرادق أو خيمة كبيرة.

وتوجّهت الركائب الشريفة السلطانية إلى بلاد حلب واستمرّ بها أيام الشتاء وتوفى بها السلطان جهانكير قرّة عين السلطنة الشريفة وثمرة فؤادها لعشر ليال بقين من ذى الحجّة الحرام سنة ستين وتسعمائة، وجهّز تابوته إلى إسطنبول فى ذى الحجة سنة ستين وتسعمائة، فلمّا انقضى الشتاء توجّه الركاب الشريف السلطانى إلى نَخجوان من بلاد العجم فأخلاها الشاه وتركها خالية ومضى إلى الأطراف والجوانب ولم يقابل ولم يحارب ولم يقاتل فعادت الحضرة السلطانية إلى أماسية وأقام ليكرّ على بلاد العجم، فجاءت رُسُلُ الشاه وطرق باب الصلح فرأت الآراء الشريفة السلطانية إجابة الشاه إلى سؤَاله ترويحًا للعساكر السلطانية وصونًا لدماء الرعية، فأنعمت على الشاه بقبول ما يتمنّاه وأمرتْ بإرسال أجوبة حسب مراده ومُنَاه، وعادت حضرته الشريفة إلى تخت ملكها الشريف، ممدودًا ظلّ سلطانها الوريف، واستقرّت ذاتها العلية قريرة العين بالسعادات الباهرة السنيّة على تخت الخلافة البهيّة بدار الإسلام القسطنطينية لا زالت بسيوف السلطنة الشريفة العثمانية محروسة محميّة، آمين، وذلك فى سنة إحدى وستين وتسعمائة.

• الغزوة الثالثة عشرة: غزوة سكتوار[1]:

وهى آخر غزواته الكبار، لمَّا كان دأب هذا السلطان الأعظم المجاهد فى سبيل الله ونصرة دين الإسلام، كدأب آبائه وأسلافه العظام، ولكلّ امرئ منهم من دهره ما تعوَّد، وعاده الجهاد فى سبيل الله أعظم ذخرًا عند الله وأعوَد، تاقت نفسه النفيسة إلى الجهاد، واشتاقت إلى قتال الكفار الفجار، وصممت على السفر إلى بج ودمشوار[2]، وكان مزاجه الشريف متوّعكًا باستيلاء مرض النقرس عليه ويتألَّم بذلك ألمًا شديدًا ويتصبّر صبر الرجال، ويُظهر للناس غاية التجلُّد والاحتمال، فمنعه عن السفر رئيس الأطبّاء صاحبنا

(١) منائح الكرم ٣/ ٤٤٤.

(٢) المنح الرحمانية ص١٢١ ـ ١٢٢.

المرحوم الشيخ بدر الدين محمد بن محمد القُوصُونى المصرى، وكان من أحذق الحُذَّاق، وأفضل الفضلاء فى سائر العلوم على الإطلاق، أديبًا أريبًا، كاملاً لبيبًا، طبيبًا حبيبًا، بينى وبينه ملاطفات ومراسلات أدبيّة ومطارحات تجتنى ثمار الأدب الغضّ من رياضها، وتقتطف أزهار المفاكهة من أكمام أغصان غياضها، بردّ الله تعالى مَضْجَعَه، وأنزل عليه من زلال رحمته سَلْسَبيلاً، وسقاه فى الجنّة كأسًا كان مزاجها زنجبيلاً.

فلم يمتنع السلطان المرحوم عن السفر، ولم يطع الطبيب فيما ذكر، وقال له: أريد أن أموت غازيًا، وأبذل روحى فى سبيل الله مجتهدًا ساعيًا، فبرز بجيوشه المنصورة وجنوده، ورياته المقرونة بالنصر وبنوده، والظفر يقدمه، والسعد يخدمه، وانقضّ كالشهاب الثاقب، والحسام القاطع القاضب، حتى طرق الكفار كالأحلام الطوارق، وخفقت بالنصر أعلامه كالرياح الخوافق، واختطفت أبصارهم ببوارق الأسياف الصواعق، وكان بروزه من القسطنطينية المحميّة فى يوم الاثنين المبارك لتسع مضين من شوال المقرون بالظفر والسعادة والإقبال سنة أربع وسبعين وتسعمائة، واستمرّ يموج بجيوشه كالبحر الموّاج، ويفيض إحسانه على كلّ فقير محتاج، كالغيث الثَّجَّاج، وهو يقطع المراحل والمنازل، ويسلك فجاج المسالك والمناهل، إلى أن قطع الأنهار الغزار، والمياه العظيمة الكبار، بجسور محكمة بُنيت عليها، وسفائن كالأطواد غرقت فيها، لتدعم الجسور إليها، إلى أن أمكن تعدية ذلك الخميس العرمرم، ومرور ذلك الجيش الأكبر والسواد الأعظم، ونزلوا بعد الحطّ والترحال، ومعاناة الأهوال، على قلعة سكتوار، من أعظم قلاع الكفار، وهى أعظم قلاع دمشوار، فأحاطوا بها كإحاطة الطوق بالعنق، وداروا عليها دَوَران الأفلاك على الأفق.

وهى مدينة حصينة، واسعة شاسعة مكينة، راسخة البناء، فى حضيض الماء، شامخة الهواء، إلى عنوان السماء، فى غاية العلوّ والتحصين، وأعلى درجات الاستحكام والتمكين، وأقْوَى ما بيَد الكفار من المكان الحصين،

كأنها فى الارتفاع والشهوق، تناطح النطح وتعاوق العيوق، وكأن بريق نيرانها لَمَعَان البروق، عند الخُفوق، مشحونة بآلات الحرب والمدافع، مملوءَة بالمكاحل الكبيرة والمقامع، موسومة بجيوش النصارى وأبطالهم، مرسومة بفتيانهم الشجعان من رجالهم، فحصرهم عسكر الإسلام وحاصروهم، وضيّقوا عليهم مسالكهم وصابروهم، وناوبوهم القُتَّال وناوشوهم، وصالوا عليهم وحاشوهم.

فتحصّن الكفار فى قلعة سكتوار، ورموا على المسلمين بمقامع النار، فتترّس المسلمون بالمتاريس، وهجموا على الكفرة المناحيس، وحمى الوطيس، وتحمّس الجيش الخميس، وأقدم من الأبطال المشهورين، والفرسان والشجعان المخبورين، من أظهر بشجاعته اليد البيضاء آية للناظرين، وطلب من الله تعالى النصر وهو خير الناصرين، وعند اشتداد الحرب والقتال، وتصادُم الأبطال تصادم أطواد الجبال، إذ غلب على السلطان توعُّكُهُ وسُقمه، فاشتد عليه مرضه وأَلَمُهُ، وغمرَتْه غمرات الموت، ولاحت عليه أمارات الفوت، وهو يلهج إلى الله المجيب، ويتضرّع إلى جنابه الرحيب، لطلب الفتح القريب، ويسأل من الله الظفر والتأييد، على أخذ الكافر العنيد، فاستجاب الله تعالى دُعاءه، وحقّق بحصول المراد رجاءَه، واضطرمت النار، فى خزينة بارود الكفار، وهى مخزونة بقلعة سكتوار، وكانوا أَعَدُّوها لقتال المسلمين وأكثروا منها لتكون موفَّرة عندهم فأصابهم شرر من النار، بتقدير الله القدير القَهَّار، فأخذت جانبًا كبيرًا من القلعة رفعَتْه إلى عنان السماء، وزلزلت الأرض زلزلة هائلة إلى تخوم الماء، وتطايرت جلاميد الصخار إلى الهوى، ورَمَتْ شرارًا ولهبًا ودخانًا إلى أن امتلأ الفضا، فضَعُفَت بذلك طائفة الكفار، وعذّبهم الله بالنار قبل عذاب النار.

وتزاحم المجاهدون فى سبيل الله، معتمدين على نصر الله، بآلات الحرب والجهاد، وصدق النيّة والاعتقاد، واشتدّ القتال والجلاد، ورمى الكفار بمدافع أقوى من الصواعق، وأخطف للأسماع والأبصار من الرُّعُود والبوارق،

وثبت المسلمون وأقدموا على النيران، وهم كالأطواد الراسخة بقوّة الجنان، لم يتأوَّه أحدُهم والنار تحطمه وتدفعه، ولم يبال على أىّ جنب كان فى الله مصرعه، وتقدم الجيش المنصور، وطبول الحرب ومزاميرها كنفخ الصور، يوم النشور، والمدافع تتهادى كما تتهادى الشهب، وتترامى بالأحجار كما تترامى بوارق السُّحب، وتوجّهت المسلمون توجُّهًا خالصًا لوجه الله، وحملت على الكفار حملة واحدة بغاية التيقُّظ والانتباه، غير مبالين بموت ولا حياة، مُوقنين بأن لا مفرَّ ممَّا قدره الله، وتعلّقوا بأطراف القلعة واقتلعوها من أيدى الكفار، وهجموا عليها ودخلوها من فوق الأسوار، وقُتل منهم من قُتل ونجا من نجا، بمساعدة الأقدار، وافتتحت قلعة سكتوار، ورُفعت الراية الشريفة السلطانية السليمانية على أعلى متار، ووُضعت السيوف فى جميع الكفار الفجار، وقتلوهم وساقوهم إلى جهنّم وبئس القرار.

وعند وصول خبر الفتح على السلطان سليمان، فرح وحمد الله على هذه النعمة والإحسان، واستسلم لربّه وقال: طاب الموت الآن، وانتقل من سرير ملك الدنيا إلى سُرر مرفوعة فى أعلى الجنان.

وأخفى حضرة الوزير الأعظم محمد باشا وفاة حضرة السلطان، وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات، وأعطى الأمراء والبكلاربكية الترقيات، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات، وأرسل سرًا يستدعى السلطان سليم خان الثانى، ويستعجله فى سُرعة الوصول إلى التخت الشريف العثمانى، وكتم ذلك عن جميع الخواصّ والخُدَّام، وعن جميع العسكر والأمراء والوزراء وسائر الأنام، وأحسن التدبير فى هذا الكتم، وهو من اللازم الحتم، فى الأمور العظام، واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام، وأحوال العسكر المنصور السلطانى فى أعلى درجات النظام، وهم فى ديار الكفر بعيدون عن ديار الإسلام، وذلك من كمال العقل التامّ، والرأى الصائب الثاقب التمام، إلى أن وصل ركاب حضرة السلطان سليم، إلى مقرّ تخته الكريم، وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى

أوطانها، ومقرّها ومكانها، وعاد مع أركان دولته، ووزراء سلطنته، وبقية عسكر بابه العالى إلى القسطنطينية العظمى[١]، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى، وغُسّل المرحوم السلطان سليم وحُنّط وكُفّن، وأنشد لسان الاعتبار:

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن[٢]

ووُضع فى تابوت وحُمل على الأعناق، وقد قلّدها فى حياته قلائد نعم حلت محلّ الأطواق، وهو ممّن يليق أن يُنْشَد فيه:

كم قلت للرجل المولّى غسّله هَلاَّ أطَاع وكنت من نصحائه
جنّبه ماءك ثم حنّطه بما ذرفت عيون المجد عند بكائه
وأزلْ أفاوية الحنوط ونَحِّها عنه وحنّطْه بطيب ثنائه
ومُر الملائكة الكرام بحمله فلطالما حُمّلن من نعمائه

واستمرّ محمولاً إلى أن أتوا به إلى إسطنبول، وخرج إلى استقباله جميع العلماء والموالى العظام، والمشايخ الأَتْقياء الكرام، وسائر أصناف الأنام، وبكوا عليه بكاء طويلاً وأكثروا نحيبًا وعويلاً، وصلّوا عليه وأَمَّهُم فى صلاة الجنازة المفتى الأعظم مولانا أبو السعود أفندى عالم بلاد الإسلام، ودُفن فى تربة أعدَّها لنفسه رحمه الله تعالى، ورثاه الشعراء بكلّ لسان، بقصائد طنانة سارت بها الركبان، أعظمها وأحسنها قصيدة المفتى المذكور وهى طويلة حذفتُ بعضها رَوْمًا للاختصار، وأثبتُّ مختارها بحُسن الاختيار، وهى[٣]:

أَصَوْتُ صاعقةٍ أم نفخة الصُّورِ فالأرض قد مُلِئَت من نَقْرِ ناقُورِ
أصاب منها الوَرى دهياء داهية وذاق منها البرايا صعقة الطُّورِ
تهدّمَت بُقْعة الدنيا لوقعتها وانهدّ ما كان من دُور ومن سورِ
أمسَى معالمها تيماء مقفرة ما فى المنازل من دار ودَيُّورِ

(١) مناتح الكرم ٣/ ٤٤٥.
(٢) المنح الرحمانية ص١٣١.
(٣) المنح الرحمانية ص١٣٢.

تصدَّعت قُلَل الأطواد وارتعدت ... كأنّها قلب مرعوبٍ ومذعورِ
واغبر ناصية الخضراء وانكدرت ... وكاد تمتلئُ العَبْراء بالمُور
فمن كئيبٍ وملهوفٍ ومن دنفٍ ... عانٍ بسلسلة الأحزان مَأسور
فيا له من حديثٍ مُوحشٍ نكرٍ ... يعافه السمع مكروه ومنفور
تاهت عقول الوَرَى من هول وحشتِهِ ... فأصبحوا مثل مجنون ومسحور
تقطّعت قطعًا منه القلوب فلا ... يكاد يُوجَدُ قلب غير مكسور
أجفانهم سُفُن مشحونة بدمٍ ... تجرى ببحر من العبرات مسجور
أتى بوجه نهارٍ لا ضياءَ له ... كأنه غارةٌ شُنَّتْ بدَيْجُور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن ... قضَتْ أوامره فى كلّ مأمور
وَمَنْ وَمَنْ ملأ الدنيا مهابَتُهُ ... وسخّرت كلّ جبّار وتَيْهور
مدار سلطنة الدنيا ومركزها ... خليفة الله فى الآفاق مذكور
مُعْلى معالم دين الله مظهرها ... فى العالمين بسَعْيٍ منه مشكور
وحُسْنِ رأيٍ إلى الخيرات منصرفٍ ... وصدق عزم على الألطاف مقصور
بآية العدل والإحسان ممتثل ... بغاية القسط والإنصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد ... مؤيّد من جناب القدس منصور
بِلَهْذَمِيٍّ إلى الأعداء منعطف ... ومشرفيّ على الكُفَّار مشهور
وراية رفعت للمجد خافقة ... تحوى على عَلَم بالنصر منشور
وعسكر ملأ الآفاق محتشد ... من كلِّ قطرٍ من الأقطار محشور
له وقائع فى الأكناف شائعة ... أخبارها زُبرت فى كلّ طامور
يا نفس ما لك فى الدنيا مخلّفة ... من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تَمْشين فوق الأرض غافلة ... أليس جُثمانه فيها بمقبور
حق على كلّ نفس أن تموت أسًا ... لكنّ ذلك أمرٌ غير مقدور
فللمنايا مواقيت مقدّرة ... تأتى على قدر فى اللوح مسطور

وليس فى شأنها للناس من أثرِ ... ومدخلٍ ما بتقديم وتأخير
يا نفس فاتَّئِدِى لا تهلكى أسَفًا ... فأنتِ منظومةٌ فى سلك معذور
إذ لستِ مأمورة بالمستحيل ولا ... بما سِوَى بذل مجهود ومَيْسُور
ولا تظنّنه قد مات بل هو ذا ... حىٌّ بنَصٍّ من القرآن مزبور
له نعيمٌ وأرزاقٌ مقدّرةٌ ... تجرى عليه بوجه غير مشعور
وإن المنايا وإن عمّت محرّمةٌ ... على شهيد جميل الحال مبرور
مرابط فى سبيل الله مقتحم ... معارك الحتف بالرضوان مأجور
ما مات بل ذل عيشًا باقيًا أبدًا ... عن عيشٍ فان بكل الشرّ مغمور
ابتاع سلطنة العقبى بسلطنة الد ... نْيا فأعظم بربح غير محصور
بل حار كلتيهما إذ حلّ منزله ... من لم يغايره فى أمرٍ ومأمور
أما ترى مُلكه المحمىّ آل إلى ... سِرّ سَرِىٍّ له فى الدهر مشهور
ولىٌّ سلطنة الآفاق مالكها ... برًا وبحرًا بعين اللطف منظور
ظلّ الإله ملاذ الخلق قاطبةً ... وملتجى كلّ مشهور ومدهور
فإنّه عينه فى كلّ مأثرة ... وكلّ أمر عظيم الشان مأثور
ولا امتياز ولا فرقان بينهما ... وهل يميّز بين الشمس والنُّور
سُمَيْدَعٌ ماجد زادت مهابته ... تخت الخلافة فى عزّ وتَيْقُور
جدّ الجديدان فى أيام دولته ... صارا كأنهما مسك بكافور
أضحى بقبضته الدنيا برُمّتها ... ما كان من مجهل منها ومعمور
بدا بطلعته والناس فى كُرَب ... وسوء حال من الأحوال منكور
فأصبحت صفحات الأرض مشرقة ... وعاد أكتافها نورًا على نور
سبحان من ملك جلت مفاخره ... عن البيان بمنظوم ومنثور
كأنها ويراع الواصفين لها بحرٌ ... خميس إلى منقار عصفور
لا زال أحكامه بالعدل جارية ... بين البريّة حتى نفخة الصور

obeikandi.com

فصل فى ذكر بعض مآثر المرحوم السلطان سليمان، وخيراته وصدقاته الجارية الحسان، فى جميع البلدان، سيما فى بلد الله الحرام، وبلد خاتم الأنبياء والرسل الكرام، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام

اعلم أن الخيرات والمبرّات، والمساجد والعمارات، والمدارس والخانقاهات وإجراء العيون وبناء القلاع والخانات، وغير ذلك من أنواع الخيرات، فى كل الجهات، التى أنشأها المرحوم السلطان سليمان رحمه الله تعالى كثيرة جداً لا يمكن حَصْرُها، ولا يدخل تحت حيطة البيان ذكرُها، ولا يَسَعُ هذا الكتاب شرحها وسَبْرها، لكنّا نذكر مجملاً من ذلك فما لا يُدْرَك كلُّهُ، لا يُتْرَك كلُّهُ، ونذكر خيراته فى الحرمَيْن الشريفَيْن، ونُحيل ما عداها إلى السماع والمشاهدة برأى العَيْن.

فمن ذلك الصدقة الرومية[1] التى هى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين وبها معايشهم وقيام أودهم، وسبب بقائهم ومددهم، فإنها وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام، وأجداده الملوك الكبار الفخام، إلا أن المرحوم السلطان سليمان هو الذى زادها وضاعفها، وأنماها وكثّرها وقرّرها، وأضاف إليها من خزائنه الخاصّة مبلغًا كبيرًا[2] فهى تَرِدُ ولله الحمد فى كلّ عام بدفتر محفوظ مضبوط وأمين وكاتب يقسمه فى الحرم الشريف، تجاه بيت الله المطهّر المنيف، وتُقرأ الفواتح بالإخلاص ويكثر الضجيج من الفقهاء والفقراء والعلماء والصلحاء بالدُّعاء بدوام دولة سلطان الزمان، والرحمة والرضوان على آبائه، وأجداده من آل عثمان، ويفرق عليهم حسب الدفتر السلطانى، المرسوم بالنشان الشريف العثمانى، فيصرفون

(١) انظر فى ذلك: منائح الكرم ٣/ ٤٤٨.

(٢) كذا فى شذرات الذهب ٨/ ٣٧٦، وهو ينقل عن المصنف ومثله فى م، وفى ل: «كثيرا».

ذلك إلى قضاء ديونهم، فإن فضل أصرفوها فى حجّهم وكساويهم، وأنفقوها على عيالهم وأولادهم، ولم يقع الإحسان على هذه الصورة لأحد من السلاطين والخلفاء والملوك غيرهم على أهل الحرمين الشريفين.

والصدقات وإن كانت تَرِدُ من السلاطين وغيرهم لكن ليست بهذا الضبط والاستمرار والوصول فى محلّها وتعميم الناس بها، وكانت للخلفاء العبّاسيين وغيرهم صدقات كثيرة واسعة، إلا أنها كانت تَرِدُ مَرَّةً فى العمر أو عند وصول خليفة منهم إلى الحجّ، وما تحقّقنا مواظبة وصولها على هذا الوجه الذى شرحناه لأحد غير ملوك آل عثمان خلّد الله سلطنتهم إلى انتهاء الزمان، وهذه بركة جزيلة، ونعمة كبيرة جليلة، يتميّزون بها على غيرهم فالله تعالى يديم ذلك على جيران بيته الحرام، وجيران نبيّه أفضل الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، بدوام سلطنة آل عثمان الملوك العظام، المخلّد ذكر جميلهم فى صفحات الأيام، أبقاهم الله تعالى إلى يوم القيام.

ومنها صدقة الحبّ، وقد تقدّم أن المرحوم المقدّس السلطان سليم خان الأول أوّل من تصدّق بإرسال صدقة الحبّ إلى أهل الحرمين الشريفين عند افتتاح بلاد العرب وأخذه لإقليم مصر والشام وحلب، واستمرّت متواصلة إلى زمن المرحوم السلطان سليمان، وكانت تُرْسَل من أنبار الخاصّ السلطانى، فأفرد لها السلطان سليمان قُرًى بمصر واشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل غلّتها وريعها لأهل الحرمين الشريفين وكتب بذلك كتابَ وقف حكم بصحته قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى، وجعل من ريعها ألفًا وخمسمائة إردب بالكيل المصرى لأهل مكة المشرفة، وخمسة آلاف إردب لأهل المدينة المنوّرة، يجهّزها فى كل عام من مصر الناظر المتولّى على ذلك.

ثم ضاعفها وجعل فى كل عام لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف إردب، ولأهل المدينة المنورة ألفَىْ إردب، واستمرّت تَرِدُ كل عام وتوزّع على أهل الحرمين حسب دفتر مقرّر بأحكام شريفة سلطانية، وتذاكر باشويّة وتقريرات

من القضاة ونُظَّار الحرم الشريف واستقرّ الحال على ذلك واستمرّ إلى آننا هذا وإلى ما بعد إن شاء الله تعالى.

وهذا أيضًا إحسان عظيم وخير جميل عميم صار سببًا لمعاش أهل الحرمين الشريفين وتقوّتهم ومادة لحياتهم وتعيّشهم وأودهم وقوتهم، فلو عدموه والعياذ بالله هلكوا، والدعاء من صميم قلوبهم مبذول فى الحرمين الشريفين بدوام دولة سلطان الزمان والترحّم على آبائه الكرام وأسلافه العظام، وهذا إحسان لم يُعْهَد فى زمن السلاطين السابقة ولا أيام الخلفاء السالفة، بل هو مخصوص بسلاطين آل عثمان إلا ما فعله السلطان قايتباى رحمه الله بعدما حجّ بيت الله الحرام وزار المدينة المنوّرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فإنه وقف على أهل المدينة المنورة ضياعًا وقُرًى يَصِل ريعها إلى الآن لأهل الحرمين الشريفين وللسلطان جقمق أيضًا أوقاف يصل منها شىء دون ذلك إلى الحرمين الشريفين، وقد آلت أوقافهما إلى الخراب وضعف ريعُها جدًا.

وأمّا الأوقاف الشريفة العثمانية فعامرة آهلة يفيض منها الزوائد ويحصل منها النُّمُوُّ وعليها مَدار معيشة أهل الحرمين الشريفين، عمّرها الله تعالى وأنماها وعمّر عُمر مَنْ عمّرها وزَكّى عمل مَنْ زكّاها.

ومنها صدقات الجوالى[1]، وهى جمع جالية، ومعناه ما يؤخذ من أهل الذمّة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الإسلام تحت الذمّة وعدم جلائهم عنها، وهى من أحلّ الأموال إن أُخذت على وجهها المشروع، ولأَجْل حلّها جُعلت وظائف للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء، وكان يخرج منها شىء قليل جدًا فى أيام الجراكسة لبعض المشايخ، فلمّا كانت أيام سلطنة المرحوم السلطانى سليمان خان نوّر الله تعالى مَرْقَدَه وخصّه بالرحمة والرضوان أخرجها من خزائنه العامرة بالتدريج إلى العلماء والمشايخ من أهل الحرمين الشريفين، ومن أهل مصر ومن المتقاعدين بمصر وبالحرمين الشريفين، إلى أن استوعب صرفها جميعها وزاد عليها قدرًا كبيرًا أخرجه من خزائنه الشريفة،

(١) منائح الكرم ٣/٤٤٨.

وذلك من جوالى مصر وحدها غير جوالى الشام وحلب وغيرهما من الممالك الشريفة العثمانية، وغير ما يُصْرَف على الفقراء والعلماء والمشايخ من محصول المملكة فى سائر ممالكهم المحروسة، وغير ما تَصْرفُه ملوك بنى عثمان من ريع أوقافهم وزوائدهم، وغير ما يخرجون من خزائنهم العامرة فى وجوه الخيرات والصدقات وأطعمة العمارات بحيث لا يُحْصَى مقدارها ولا يستقصى انحصارها.

وناهيك بكثرة هذه المصارف فى وجوه الخيرات والعوارف ولم يعهد مثل كثرة هذه الخيرات واستمرار هذه الإدرارات لأحد من السلاطين والخلفاء والملوك العظماء الكرام الحنفاء فى زمن من الأزمان، فى دولة ملك أو دور سلطان، فالله تعالى يُبْقى هذه الدولة الشريفة الباهرة، والسلطنة القاهرة الفاخرة الزاهرة، إلى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة.

ومن خيراته الدارة إجراء العيون، ومن أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة المشرفة، وسبب ذلك أن العين التى كانت جارية بمكة هى عين حُنَيْن وهى من عمل أُمّ جعفر زُبَيْدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد واسمها أَمَة العزيز وكان جدُّها المنصور يرقّصها وهى طفلة ويقول: أنت زبيدة، فاشتهرت بها، وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة إلى الآن، منها إجراء عين حُنَيْن إلى مكة المشرفة وأَصْرَفت عليها خزائن أموال إلى أن جَرَتْ إلى مكة، وهى وادٍ قليل الأمطار بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها وادٍ غير ذى زرع، فنقبت أُمُّ جعفر زبيدة الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحِلّ إلى أرض الحرم، وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب، فلمّا تمّ عملها اجتمع المباشرون والعُمَّال لَدَيْها وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما أصرفوه ليخرجوا من عُهْدة ما تسلّموه من خزائن الأموال، وكانت فى قصر عالٍ مشرف على الدجلة، فأخذت الدفاتر منهم ورَمَتْها فى بحر الفرات وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب، فمن بقى عنده شىء من بقية المال فهو له ومن

بقى له شيءٌ عندنا أعطيناه وألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين، وبقى لها هذا الأثر العظيم فى العالمين، رحمها الله تعالى وأسكنها الفردوس فى أعلى عليّين.

وكانت هذه العين تَرِدُ إلى مكة وينتفع الناس بها ومنبع هذه العين فى دبل جبل شامخ يقال له طاد ـ بالطاء المهملة والألف وبعدها دال مهملة ـ من جبال الثنيّة من طريق الطائف[1] وكان يجرى الماء إلى أرض يقال لها حُنَيْن يُسْقى بها نخيل ومزارع مملوكة للناس وإليها ينتهى جريان هذا الماء، وكان يُسَمَّى حائط حنين يعنى بساتين حنين، وهو موضع غزا فيه النبى ﷺ المشركين، ويقال لتلك الغزوة غزوة حنين، وخبرها مذكور فى كُتُب سير النبى ﷺ.

فاشترت زبيدة هذا الحائط وأبطلت تلك المزارع والنخيل، وشقّت له القناة فى الجبال وجعلت لها الشحاحيذ[2] فى كلّ جبل يكون، دبله مظنّه لاجتماع الماء عند الأمطار، وجعلت فيه قناة متّصلة إلى مجرى هذه العين فى محاذاتها يَحْصُلُ منه المدد لهذه العين، فصار كلّ شحّاذ عينًا تساعد عين حُنَيْن، منها عين مُشاش وعين ميمون وعين الزعفران وعين البرود وعين الطارقى وعين ثقبة والجُرَيْنات، وكلّ مياه فى هذه العيون تنصبُّ فى دبل عين حنين ويبطل بعضها ويزيد بعضها وينقص بحسب الأمطار الواقعة على أمّ إحدى هذه العيون أو على جميعها إلى أن وصلت على هذه الصورة إلى مكة المشرفة، ثم إنها أمرت بإجراء عين وادى نَعْمان إلى عرفة وهى عين منبعُها دبل جبل كَداء وهو جبل شامخ جدًا أعلاه أرض الطائف مسيرة نصف نهار من أسفله إلى أعلاه، من صعد فيه أو نزل منه مَرَّةً لا يعود إليه، لوعُورة مرقاه وصعوبته، وتنصبّ من دبل جبل كداء فى قناة إلى موضع يقال له الأَوْجَر

(١) منائح الكرم ٣/ ٢٥٩.

(٢) الشحاحيذ: عبارة عن برك فى كل جبل يكون دبله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار جعلت فيها قنوات متصلة إلى مجرى العين الأصلية بحيث يصبح كل شحاذ عينًا يساعد العين الرئيسية.

من وادى نَعْمان، وتجرى منه إلى موضع بين جبلين شاهقين فى عُلُوّ أرض عرفات فيها مزارع، ولشعراء العرب تشوّقات وتغزّلات فى وادى نعمان، وفيه يقول القائل:

أيا جَبَلَىْ نعمـــان بالله خلّيا نسيم الصبا يخلص إلىَّ نسيمهَا

فعملت القنوات إلى أن جرى ماء عين نعمان إلى أرض عرفة، ثم أديرت القناة بجبل الرحمة محلّ الموقف الشريف الأعظم فى الحجّ وجعلت منها الطُّرق إلى البرك التى فى أرض عرفات فتمتلىء ماء يشرب منه الحجّاج فى يوم عرفة، ثم استمرّ عمل القناة إلى أن خرجت من أرض عرفات إلى خلف جبل من وراء المأزمَيْن على يسار العائد من عرفات، ويقال له طريق ضابّ بالضاد المعجمة المفتوحة فالألف بعدها باء موحدة مشدّدة، وتسمَّى الآن عند أهل مكة المُظْلِمَة - بضمّ الميم ثم ظاء معجمة ساكنة فلام مكسورة ثم ميم مفتوحة ثم هاء التأنيث - ثم تصل منها إلى المزدلفة ثم تستمرّ إلى جبل خلف مِنى فى قبليّها ثم تنصبّ إلى بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جدًا تسمَّى بئر زبيدة إليها ينتهى عمل هذه القناة، وهى من الأبنية المهولة ممّا يتوهّم أنه من بناء الجن.

ثم صارت عين حُنَيْن وعين عرفات تنقطع لقلّة الأمطار وتتهدّم قنواتهما وتخربهما السيول بطول الأيام، وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمّروهما عند انتظام سلطنتهم، وقوّة مكنتهم، فتجرى تارة وتنقطع أخرى، واستمرّ الحال على هذا المنوال.

فممّن عمّرها صاحب إربل وهو الملك الجليل مظفر الدين كجك كوكبورى ابن على فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وكوكبورى معناه بالتركى: الذئب الأزرق، وكان كثير الخير والإحسان جدًا وله ترجمة واسعة فى وفيات الأعيان لقاضى القضاة أحمد بن خلّكان رحمه الله تعالى، ذكر له أوصافًا كريمة ومكارم عظيمة ذكر منها عمارة عين عرفات وغيرها من جزيل الخيرات[1].

(١) ابن خلكان ٤/ ١١٧.

ثم عمّرها صاحب إربل مظفر الدين المذكور فى سنة خمس وستمائة، أيضًا، ثم عمرها بعد ذلك أمير المؤمنين المستنصر بالله العبّاسى فى سنة خمس وعشرين وستمائة ثم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ثم فى سنة أربع وثلاثين وستمائة، كما وجدت ذلك مكتوبًا فى نصب حجارة مبنيّة فى قرب الموقف الشريف بعرفات، ثم بعد مائة عام تقريبًا عمّر عين حنين الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراقَيْن فى أيام السلطان أبى سعيد خدابنده فى سنة ست وعشرين وسبعمائة فأجرى عين حنين، إلى مكة وعم نفعها لأهل مكة فإنهم كانوا فى جَهْد عظيم لقلّة الماء، فرحمهم الله بذلك ورحم الله تعالى أهل الخير[١].

ثم عمرها شريف مكة يومئذ السيد الشريف حسن بن عجلان جدُّ ساداتنا أشراف مكة الآن أبقاهم الله تعالى وأدام عزّهم وسعادتهم مَدَى الزمان، وكان من أهل الخير والإحسان، أجزل الله ثوابه فى الجنان، وكان تعميره لها فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة، فجَرَتْ وانفجرت ونفعت وانبلجت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد، تقبّل الله منه صالح أعماله[٢].

ثم انقطعت ولقى الناس شدّة عظيمة لذلك إلى أن عمرها صاحب مصر من ملوك الجراكسة الملك المؤيّد أبو النصر شيخ المحمودى فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، هكذا ذكره التقى الفاسى[٣] رحمه الله.

ثم عمرها وعمر عين عرفات أيضًا بعد ذلك من ملوك مصر الجراكسة الملك الأشرف قايتباى رحمه الله، وعمر عين عرفات فأجراها إلى أرض عرفات، وعمر عين حنين إلى أن جرت إلى مكة، وعمر عين خُلَيْص وحصل بها الرفق للحُجَّاج وأهل البلاد، ودعوا له وأثنوا عليه بذلك وبإحساناته، وكثرة خيراته، ضاعف الله تعالى أجره ومثوباته، وذلك بمباشرة

(١) شفاء الغرام ١/ ٥٥٤.

(٢) شفاء الغرام ١/ ٥٥٥.

(٣) شفاء الغرام ١/ ٥٥٥.

الأمير يوسف الجمالى وأخيه الأمير سُنْقر الجمالى رحمهما الله تعالى فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، ثم عمر عين حنين آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغورى رحمه الله تعالى فى عام ستة عشر وتسعمائة على يد الأمير خير بك المعمار[1] رحمه الله؛ إلى أن جرت وملأت برك الحجاج فى المعلاة، ثم جرت إلى بازان، ثم إلى بركة ماجن فى درب اليمن من أسفل مكة، وارتفق الناس بذلك.

ثم انقطعت فى أوائل الدولة العثمانية بهذه الأقطار الحجازية، وبطلت العيون لقلّة الأمطار وتهدّمت قنواتها، وانقطعت عين حنين عن مكة المُشرفة وصار أهل البلاد يستقون من الآبار حول مكة من آبار يقال لها العُسَيْلات فى عُلُو مكة قريب من المُنْحَنى ومن آبار فى أسفل مكة من مكان يقال له الزاهر ويسمَّى الآن بالخوخى فى طريق التنعيم، وكان الماء غاليًا قليل الوجود.

وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدّمت قنواتها، وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأمكنة البعيدة، وصار فقراء الحجاج فى يوم عرفة لا يطلبون شيئًا غير الماء لعزّته ولا يطلبون الزاد، وربّما جلبه بعض الأقوياء من الأماكن البعيدة للبيع فيحصلون أموالاً من ذلك لغُلُوِّ ثمنه، وإنى أذكر أن فى سنة ثلاثين وتسعمائة قل الماء فى الآبار البعيدة أيضًا، فارتفع سعْر الماء جدًا فى يوم عرفة، وكنت يومئذ مُرَاهقًا فى خدمة والدى رحمه الله وفرغ الماء الذى كُنَّا حملناه من مكة إلى عرفات، وعطش أهلنا فتطلّبت قليلاً من الماء للشرب، فاشتريت قربة ماء صغيرة جدًا يحملها الإنسان بإصبعه بدينار ذهب، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون من الماء ما يبلّ حلوقهم فى ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا بعض تلك القربة وتصدّقوا بباقيه على بعض من كان مضطرًا من الفقراء وعطشتُ عقيبه وجاء وقت الوقوف الشريف والناس عِطاش يلهثون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله تعالى ورحمته والناس واقفون تحت جبل الرحمة، فصاروا يشربون من السيل

(١) منائح الكرم ٣/ ١٧١.

من تحت أرجلهم ويسقون دوابّهم، وحصل البكاء الشديد والضجيج الكثير من الحجاج فى وقت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم وإحسانه إليهم وتكرُّمه عليهم، ولا أزال أتذكّر تلك الساعة وما حصل بها من اللطف العظيم، من كرم الله العميم، وأرجو به كرم الكريم، وأتيقّن أنه الغفور الرحيم، الذى ينزل على عباده الرحمة من بعد ما قنطوا.

وبرزت الأوامر الشريفة السلطانية السليمانية بإصلاح عين حنين وإصلاح عين عرفات، وعيّن لها ناظرًا اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده فى عمارتهما وأصلح قناتهما إلى أن جَرَتْ عين مكة ودخلَتْها وخرجت من أسفلها من بركة ماجن، وأصلح عين عرفات وأجراها إلى أن صارت تملأُ البرك بعرفات وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وصار الحجاج يَرْوُون من ذلك الماء العذب الفرات، بعد ذلك العطش الشديد فى يوم عرفات، ويدعون لمن كان سببًا لإجراء هذه الخيرات[١].

ثم اشترى ناظر العين عبيدًا سودًا من مال السلطنة وجعل لهم جرايات وعلوفات من خزائن السلطنة الشريفة برسم خدمة العين ولإخراج أتربتها من الدبول[٢] والقنوات، وهذه خدمتهم دائمًا، وصاروا يتوالدون وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة لهذه الخدمة[٣].

ثم توجّه جلبى مصطفى ناظر العين إلى الأبواب السلطانية السليمانية وعرض فى أمر العين أحوالاً يجب عرضها، فأجيب إلى كلّ ما سأل فيه وعاد مجبوراً إلى مصر، ثم ركب من بندر السُّوَيْس إلى مكة فغرق فى بحر القُلْزم شهيدًا وما غرق إلا فى بحر رحمة الله تعالى وما مات بل هو حىٌّ عند الله تعالى وكانت وفاته إلى رحمة الله تعالى فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة[٤].

(١) منائح الكرم ٣/ ٢٦٠.
(٢) جمع دبل، وهو الجدول.
(٣) منائح الكرم ٣/ ٢٦٠.
(٤) منائح الكرم ص٢٦٣.

واستمرّت عين حنين جارية إلى مكة لكنّها تقلُّ تارة وتكثر أخرى بحسب قلّة الأمطار وكثرتها، وعين عرفات تجرى من نعمان إلى عرفات إلى أن صارت عرفات بساتين وغرس بها الغروس وصارت مرجة خضراء تنجلى كالعروس[١] إلى أن قلّت الأمطار ويبست العيون ونزحت الآبار فى سنين متعدّدة من سنة خمس وستين وتسعمائة وما بعدها، وكانت سنوات تقارب سنى يوسف شداداً عجافًا، وانقطعت العيون إلا عين عرفات فإنها لم تنقطع إلا أنها قلَّ جريانها فى تلك السنوات، فلمّا عرضت أحوال العيون إلى الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية التفت الخاطر العاطر السلطانى، وتوجّه العطف الشريف العثمانى، إلى تداركُ ذلك بأىّ وَجْه يكون، وأمر بالفحص عن أحوال العيون، وكيف يمكن إجراؤها إلى بلَد الله الأمين المأمون، فاجتمع المرحوم عبد الباقى بن على العربى قاضى مكة يومئذ، والأمير خير الدين خضر سنجق جُدَّة المعمورة حينئذ وغيرهما من الأعيان وتفحّصوا وداروا وتَأمَّلوا واستشاروا فأجمع رأيُهم على أن أقوى العيون عين عرفات وطريقها ظاهرة ودبولها مبنيّة إلى بئر زبيدة خلف منى، وأن الذى يغلب على الظنّ أن دبولها من بئر زبيدة إلى مكة مبنية أيضًا وأنها مخفية تحت الأرض وأنها يحتاج إلى الكشف عنها والحفر إلى أن تظهر، لأن زبيدة لمّا بَنَت الدبول من عرفة إلى بئرها المشهورة خلف منى التى جميعها ظاهر على وجه الأرض، فالباقى أيضًا من ذلك المحلّ إلى مكة بمنى أيضًا إلا أنه خاف تحت الأرض، واستغنى عنها بعين حنين وتُركت هذه ونُسيت وطُمّت وغُفلَ عنها، هكذا ظنّوا وخمّنوا أنهم إذا تتبّعوا عين عرفات من أولها من الأَوْجر إلى نَعْمان ثم إلى عرفة ثم إلى مزدلفة ثم إلى بئر زبيدة وأصلحوا هذه الدبول الظاهرة وكشفوا عن الباقى وبنوا ما وجدوا منها منهدمًا ورمّموا الباقى احتاجوا إلى ثلاثين ألف دينار ذهبًا جديداً[٢].

(١) المصدر السابق ص٢٦٥.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

وذرعوه وقاسوه فكان من الأَوْجر إلى بطن مكة خمسة وأربعون ألف ذراع بذراع البنائين الآن، وهو أكبر من الذراع الشرعى بقدر رُبعه، وهذا الذى تخيّلوه من وجود بقية الدبل تحت الأرض لم يُوجَد فى كُتُب التاريخ، وإنّما أدّاهم إلى ذلك مجرّد الظنّ بحسب القَرَائن، وعرضوا ذلك إلى الباب الشريف السلطانى فى أوائل سنة تسع وستين وتسعمائة، فلمّا وصل علم ذلك إلى المسامع الشريفة السلطانية السليمانية التمست صاحبة الخيرات، إكليلة المخدّرات، تاج المحصنات، ملكة الملكات، قدسيّة الملكات، عليّة الذات، صفيّة الصفات، ذات العُلاَ والسعادات، حضرة خانم سلطان، كريمة حضرة السلطان الأعظم سليمان، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان، أن يَأْذَنَ لها فى عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولاً أُمّ جعفر زُبَيْدة العبّاسية، فناسب أن تكون هى صاحبة هذا الخير فأذن لها فى ذلك، فاستشارت الحضرة السلطانية وزراء ديوانها الشريف العالى فيمَنْ يصلح لهذه الخدمة، فاتّفقت آراؤهم الشريفة على أن هذه الخدمة لا يقوم بها إلا دفتردار ديوان مصر الأمير الكبير المعظم فائق الجود ذو الفضل والكرم صاحب السيف والقلم والعِلْم والعَلَم إبراهيم باشا بن تغرى وردى المهمندار، بَوَّأَهُ الله جنّات تجرى من تحتها الأنهار، وسقاه من حوض الكوثر زلالاً باردًا يطفئُ كل أوام وأوار، وكان يومئذ قد عُزل من مَنْصب الدفترداية وأُمر بالتفتيش عليه عن أيام دفترداريته فعُفِىَ من التفتيش وأَعْطَتْه السلطانة خمسين ألف دينار ذهبًا بزيادة عشرين ألف ذهب على ما خمّنوه ليَصْرفها فى عمل هذه العين[1].

فتوجّه من البحر إلى مكة المشرفة[2] بتجمُّل عظيم وبرق[3] كثير وترتيب يعجز عنه كبار البكلاربكية، وكان ذا همة عالية وإقدام عظيم واهتمام تامّ وكرم نفس وشهامة وحُسن تدبير ومعرفة وفطنة وحذاقة.

(١) منائح الكرم ٣/ ٣٥٣ وما بعدها.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٣٥٤.

(٣) برق: لفظ متداول عند العامة فى العهد العثمانى بمعنى: الأسلحة.

وكان بينى وبينه سابقة اجتماع وما رأيتُ أحدً من الأمراء والوزراء والبكلاربكية مع كثرة من اجتمعت به منهم أجمل نظامًا ولا أحسن ترتيبًا وانتظامًا ولا أدقَّ فكرًا ولا أعلى همّة ولا أصدق وفاء منه رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة وبَوَّأه الفردوس الأعلى وأرضَى عنه خُصَمَاءه يوم القيامة.

وكان وصوله إلى بندر جُدَّة المعمورة فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى القعدة سنة تسع وستين وتسعمائة[1]، فتوجّهتُ إلى ملاقاته لسابق إحسانه إلىَّ فرأيتُهُ نزل بوطاقه من خارج جُدَّة من الجهة الشامية فقابلنى بالإجلال والإكرام وركب من جُدَّة إلى سيّدنا ومولانا المقام الشريف العالى نجم الدنيا والدين محمد بن أبى نُمَى خلّد الله تعالى سعادته وأَبَّدَ دولته وسيادته، وكان يومئذ نازلاً فى مَرّ الظهران فقابله بالإجلال والتعظيم والترحيب والتكريم، ومدَّ له سماطًا عظيمًا ولاطفه وواكله وأكرمه وباسطه وجابره، فعرض على حضرته الشريفة ما جاء بصدده فقوبل بامتثال الأمر الشريف السلطانى وبذل الهمّة والجهد فى إتمام المهمّ المنيف الخاقانى، وأنه يقوم بذلك بنفسه وولده وأتباعه وخدمه.

ثم ركب من عنده مجبور الخاطر مسرور الفُؤَاد وتوجّه إلى مكة المشرفة فلاقاه عند دخوله إلى مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن بن أبى نُمَىّ صاحب مكة أدام الله تعالى عزّه وسعادته وضاعف نصره وتأييده وسيادته وأَبَّدَ له الإجلال والإكرام، وقابله بالترحيب والاحترام وجابره ولاطفه وباسطه وآلفه وأقبل كلٌّ منهما على الآخر كمال الإقبال وتحادثا بغاية الأدب والإجلال، واستمرّ معه إلى أن فارقه من باب السلام فدخل المسجد الحرام فطاف طواف القدوم وكان محرمًا بالحجّ وسَعَى ما بين الصَّفَا والمَرْوَة وعاد إلى مجمع قايتباى، وهو المحلُّ الذى عُيّن لنزوله فيه ومُدَّ له ـ من قبل مولانا السيد حسن مدّ الله تعالى

(١) المصدر السابق.

ظلال سعادته ـ سماطٌ عظيم جميل كبير فجلس عليه وأكل منه هو وخواصُّه وأذن لأهل الرباط والفقراء والفقهاء وعامّة الناس فأكلوا وحملوا وفضل شيء كثير وأمر بتفريقه على الفقراء، وألْبَسَ الذى مدّ السماط قفطانًا من السراسر[1] العال، وأعطاه ذهبًا كثيرًا.

ثم جاء للسلام عليه سيدُنا ومولانا رئيس الحرمين الشريفين وكبير البلدين المنيفين شيخ الإسلام ومرجع العلماء رئيس العلماء الأعلام سيد السادات ببلد الله الحرام بدر الدنيا والدين القاضى حسين الحسينى أدام الله عزّه وإقباله، وخلّد سعادته ودولته وإجلاله، ففرح به الأمير إبراهيم، وقابله بالإجلال والتعظيم، فعرض عليه أموره وأحواله واستشاره فى سائر ما بدا له فأشار إليه بالآراء الصائبة، وأعلمه بما ينبغى رعايته ويُرعى جانبه، وما تجب عليه ملاحظته من الأمور اللازمة الواجبة.

فأوّل ما بدأ به الأمير إبراهيم تنظيف بعض الآبار التى يستقى الناس منها وإخراج ترابها وزيادة حفرها ليكثر ماؤها وحصل للناس بذلك رفق كثير، وشرع فى جميع ما يحتاج إليه من عمله وتوجّه للكشف عنه إلى أعلى عرفات، وكثر تردُّده إليها وتفطُّنه لمجاريها ومثاقبها ومشاربها ومساربها، والفحص عن أحوالها إلى أن وصل الركب المصرى، وكان أمير الحاج يومئذ افتخار الأمراء الكرام عثمان بيك ابن بكلربكى اليمن ثم بكلربكى الحبشة أُذْدُمَر باشا وصار بعد ذلك عثمان بيك هذا بكلربكى الحبشة بعد وفاة والده، ثم ترقّى وصار بكلربكى اليمن وأظهر اليد البيضاء فى افتتاح مدينة تَعِزّ، ثم صار بكلربكى الحسا، ثم البصرة ثم قره آمد، وهو من البكلربكية الكرماء العظام المتجمّلين المشهورين بالكرم والشجاعة، أبقاه الله تعالى.

ووصل إلى مكة قاضيها فى ذلك الموسم مع الركب الشامى وهو أعلم العلماء الموالى أفضل الفضلاء الأهالى مولانا فُضَيْل أفندى ابن مولانا على

(١) سراسر: نوع من الأقمشة الثمينة كانت تعمل منها أثواب السلاطين والولاة فى العهد العثمانى.

جلبى المفتى الجمالى وهو من أصلاء العلماء العظام له التصانيف الحسنة المقبولة وهو الآن أوتراق فى الباب العالى، مدّ الله تعالى ظلال أفضاله، وأدام موادّ عظمته وإجلاله، وأفاض على الطُّلاَّب سحائب فضله وكماله، وحجّ الناس حجّة هنيئة وحج الأمير إبراهيم فرض حجّه، وعاد الحجاج إلى أوطانهم فائزين بالغفران والقبول حائزين لكلّ مطلب ومأمول.

فشرع الأمير إبراهيم فى الكشف عن دبول عين عرفات، وضرب أوطاقه فى الأَوْجَر من وادى نعمان فى عُلُوّ عرفات، وشرع فى حفر قعرها وتنظيف دبولها بهمّة عالية جداً وكانت جملة مماليكه القائمين فى خدمته نحو أربعمائة مملوك[1] فى غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللباقة، أقامهم فى هذا العمل من الأوجر إلى مزدلفة وكتب نحو ألف نفس من العُمَّال والبنّاءين والمهندسين والحَفَّارين وجلب من مصر وبلاد الصعيد ومن الشام وحلب وإسطنبول ومن بلاد اليمن طوائف بعد طوائف من المهندسين وخُدَّام العيون والآبار والحَدَّادين والبنائين والحجّارين والقطّاعين والنَّجَّارين وغيرهم ممّن يحتاج إليهم، وأتى بآلات العمارة صحبها معه من مصر من مكاتل ومساحٍ ومجاريف وحديد وبولاد ونحاس ورصاص وغير ذلك، مع الهمّة القوية والإقدام التامّ والاهتمام التمام وعيّن لكلّ طائفة قطعة من الأرض لحفرها وتنظيف ما فيها من الدبول ليظهر فيها سَعْيُه واجتهاده، وكان يظنّ أنه يفرغ من هذا العمل الذى جاء بصَدَده فيما دون عام ويرجع إلى الأبواب السلطانية لينال المناصب العالية، ويظفر بالمراتب السامية، ويأبى الله إلا ما أراد، وما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه من المراد، وألْسنة الأقدار تناديه من وراء الحجاب، كيف الخلاص وإلى أين الذهاب.

واستمرّ على هذا الجدّ والاجتهاد إلا أن اتّصل عمله بعمل زُبَيْدة إلى البئر التى انتهى عملها إليها ولم يوجد بعده دبل ولا آثار عمل وضاق ذرعه بذلك، وعلم أن الخَطْب كبير وأن العمل خطير، وتحقّق أن القدر الباقى من

(١) منائح الكرم٣/ ٣٥٤.

هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطراراً بغير اختيار، وعدلت عنه إلى عين حنين وتركت العمل من عند البئر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه، وطول مسافة ما يجب قطعه، فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض فى الحجر الصوَّان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتّصل بدبل عين حُنَيْن وينصبّ فيه ويصل إلى مكة، ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج فى النزول إلى خمسين ذراعًا فى العُمق[1].

وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظًا لناموس السلطنة الشريفة، فما وجد الأمير إبراهيم حيلة غير أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوَّان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ليلة كاملة فى مقدار سبعة أذرع فى عرض خمسة أذرع من وجه الأرض، والنار لا تعمل إلا فى العلوّ لكنّها تعمل عملاً يسيراً جدًا من جانب السفل، فيلين الحجر من جانب السفل مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطًا من ذراع فيكسر بالحديد إلى أن يوصل إلى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة أُخْرى وهَلُمَّ جرًا إلى أن ينزل فى ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعًا فى العمق فى عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفى ألفى ذراع تُقْطَع على هذا الحكم، وذلك يحتاج إلى عُمر نوح ومال قارون وصبر أيّوب[2].

وما رأى عن ذلك محيصًا فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة فصار يُجلب من المسافات البعيدة، وغلا سعره وضاق الناس بذلك وتعب الأمير إبراهيم لذلك، وذهبت أمواله وخُدَّامه وأولاده ومماليكه وهو يتجلّد على ذلك إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع بالعمل، وصار كلّما فرغ المصروف أرسل وطلب مصروفًا آخر إلى أن صرف أكثر من خمسمائة ألف دينار ذهبًا من الخزائن العامرة السلطانية وغرق له مركب كان

(١) منائح الكرم ٣/ ٣٥٥.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٣٥٦.

فيه باقى تجمُّلاته وخزائنه ونقوده وفيه جملة من عبيده وأسبابه وكان ينوف على مائة ألف ذهب فى ابتداء أمره، ثم مات له ولد طفل نجيب كان خلّفه بمصر احترق عليه كثيراً ثم مات له ولدان مراهقان نجيبان فاضلان أخذا بمجامع قلبه وفتتا كبده ثم مات كَتخُداؤه وكان بمنزلة أمراء السناجق، ثم مات أكثر مماليكه وهو يتجلّد لتلك المصائب العظيمة ويتصبّر عليها ويظهر الجلد فيها إلى أن ذهبت قُواه، وما بقى رمقه ولا ذماؤه، ونزفه الإسهال، ورَمَتْه الأهوال، وجاءه الأجلُ الذى لا يتقدّم ولا يتأخّر، وإن أجل الله إذا جاء لا يُؤخر، فمات غريبًا شهيداً، ومضى إلى رحمة الله وحيداً فريداً، فى ليلة الاثنين ثانى رجب المرجّب سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وصُلّى عليه عند باب الكعبة وكانت جنازته حافلة جداً وأسفَ الناس على فقده لكثرة إحسانه ودُفن بالمعلاة على يمين الصاعد إلى الأبطح فى تربة كان أعدّها لنفسه ودَفَنَ فيها ولدَيْه قبله، وخلّف طفلاً وحملاً وبنتًا من أهل الخير كثيرة الصلاح والعبادة[1].

وكان ذكر لى أن مولده سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة رحمه الله وأرضى عنه خصماءه، وآمنه يوم الفزع الأكبر وسقاه من حوض الكوثر.

ثم أقيم بعده فى هذه الخدمة سنجق جُدَّة الأمير قاسم بك بإقامة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته، وشيّد عزّه وعظمته وسيادته، وعرض ذلك إلى الباب العالى وأمره أن يباشر هذه الخدمة إلى أن يصل من تعيّنه السلطنة الشريفة لأداء هذه الخدمة.

وكانت السلطنة الشريفة العظمى والخلافة العالية الكبرى قد انتقلت من المرحوم السلطان سليمان خان إلى نجله الأسعد الأمجد السلطان سليم خان سقى الله عهدهما صَوْب الرحمة والرضوان، فتعيّن لها فى الباب العالى دفتردار مصر يومئذ محمد بك أكمك جى زاده، وكان متجمّلاً مُثْرِيًا من أعيان الأمراء السناجق الكبراء له عقل تامّ، ورأىٌ ثاقب وإحسان وإنعام، وتلطُّف

(١) منائح الكرم ٣/ ٣٦١.

وتعطُّف وإكرام وصل إلى هذه الخدمة الشاقَّة وبذل فيها نفسه وماله وأظهر تجمُّله وتجلده واحتماله وقطع مسافة وما بلغ التمام، إلى أن وافاه الحمام، وانتقل إلى رحمة الله تعالى سعيداً شهيداً بمرض الإسهال، وأقدم على ربّه الكريم المتعال، فى ليلة الثلاثاء وقت السحر لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وتسعمائة، وصُلّى عليه عند باب الكعبة الشريفة، ودُفن فى المعلاة قبالة تربة الأمير إبراهيم الدفتردار، على يسار الذاهب إلى الأبطح[1].

وتَأَسَّفَ الناس على فقده وترحّموا عليه وأثنوا عليه خيراً رحمه الله، وخلّف ولداً صغيراً اسمه بير أحمد وبنتًا اسمها خديجة جبرهما الله تعالى، وجعل وصيّه عليهما عتيقه فرهاد كتخداءه وفقه الله تعالى وأعانه.

ثم أقيم فى خدمة عمل العين الأمير قاسم بك المذكور سابقًا سنجق جُدَّة المعمورة أقامه فيها سيدنا ومولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله عزَّه ودولته، وأمره بمباشرة العمل وعرض ذلك على الأبواب الشريفة السليمية فبرز الأمر الشريف السلطانى باستقرار قاسم بك المذكور فى خدمة العين أمينًا على مصارفها وأن يكون سيدنا ومولانا شيخ الإسلام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام بدر الدنيا والدين القاضى حسَيْن الحسينى، خلّد الله تعالى ظلال سيادته، وأبّد قيام سعادته ناظراً على ما بقى من عمل عين عرفات إلى أن تصل إلى مكة المشرفة[2].

فاستمرّ الأمير قاسم مباشراً لتعاطى هذه الخدمة، وكان لا يخلو من قصور الفهم وحبّ الاستقبال وبعض عناد، وما أراد مولانا شيخ الإسلام معارضته فتركه على رأيه، وما أراد الله تعالى أن يتمّ العمل الشريف على يد قاسم بك فصار ثالث الأميرين السابقَيْن، فطرقه الأجل وأدركه الحين، وفاز كقربتَيْه بمرتبة الشهادة وصار من شهداء العَيْن، وانتقل من دار الدنيا الفانية، إلى دار

(١) إعلام العلماء ص١١٢.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٤٥٦.

الآخرة الباقية، قرير العين لليلة خلت من شهر رجب المرجّب الفرد الأصبّ سنة تسع وسبعين وتسعمائة، وصُلّى عليه عند باب الكعبة الشريفة ودُفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بك الدفتردار المتُوفّى قبله أمين العين المزبورة واستوفت العين به ثلاثة من الأمراء السناجق سقاهم الله تعالى شرابًا طهورًا وكان بهم برًا رحيمًا غفورًا[١].

ثم توجّه سيدنا ومولانا شيخ الإسلام السيد القاضى حسين الحسينى أمد الله تعالى ظلال أفضاله وأقام خيام عزّه وعظمته وإجلاله توجُّهًا تامًا إلى تكميل ما بقى من عمل عين عرفات باعتبار ما بيده من النظر عليها حسب الأحكام الشريفة السلطانية النافذة فى الأقطار والجهات، وجدّ فى الاهتمام وبذل الجهد التامّ وعرض إلى الأبواب الشريفة وفاة قاسم بك المرحوم وعدم تعطيل العمل إلى أن يأتى أمين لإكمال العمل من الباب العالى، فبرزت الأوامر الشريفة السلطانية السليمية بأن يكمل ذلك العمل سيدنا ومولانا شيخ الإسلام القاضى حسين الحسينى المشار إلى حضرته الشريفة آنفًا فأقدم بهمّته العلية أتمّ إقدام، إلى إكمال هذا العمل الشريف بالاهتمام التامّ، فساعدته السعادة والإقبال، على الإتمام والإكمال، فكمل العمل المبارك فيما دون خمسة أشهر بعد أن عجز عن إتمامه الأمراء المذكورون قريبًا من عشرة أعوام، وهلكت نفوسهم وأموالهم وخُدّامهم وما ظفروا بهذا المرام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فجَرَتْ عين عرفات، وانفجرت ينابيعُها الجاريات، ووصل الماء وهو يجرى فى تلك الدبول والقنوات، إلى أن دخل مكة لعشر بقين من شهر ذى القعدة الحرام سنة تسع وسبعين وتسعمائة[٢].

وكان ذلك اليوم عيدًا أكبر عند الناس، وزال بوُصُول ذلك الماء إلى البلد كلُّ همّ وبأس، وعمل فى ذلك اليوم سيدنا ومولانا المشار إلى حضرته

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٥٧.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٤٥٧.

أسمطة عظيمة فى الأبطح، ببستانه الواسع الأفْيَح، وجمع جميع الأكابر والأعيان، فى ذلك المكان، ونصب لهم السرادقات والصيوان، وذبح أكثر من مائة من الغنم، ونحر عدّة من الإبل والنَّعَم، وقدّم للناس على طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلّمين، والبنائين والمهندسين، خلعا فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالإنعامات الوافرة، وتصدّق على الفقراء والمساكين، وأنعم على الكبراء والأساطين، شكرًا لهذه النعمة الجزيلة، وحمدًا على هذه المنة الجميلة، حيث أنعم الله بها على عباده، وأحيا بها وأخصب منها خير بلاده، وكان يومًا مشهودًا، وساعة سعيدة وزمانًا مسعودًا[1].

فلمّا جهّز أخبار هذه البشائر العظمى، وحصول هذه النعم الجزيلة الكبرى، إلى الباب الشريف العالى إلى السلطان الأعظم، والخاقان الأكرم الأفخم، السلطان سليم خان، سقاه الله كئوس الرحمة والرضوان، من حوض الكوثر فى أعلى غرف الجنان، وإلى سرادقات الحجاب الرفيع، والستر السابغ المسبول المنيع، صاحبة الخيرات، ملكة الملكات، بلقيس الزمان، حضرة خانم سلطان، أدام الله تعالى ظلال عفّتها وعصمتها، وأسبغ أستار رفعتها وعظمتها، فأنعمت الصدقات الشريفة السلطانية بالإنعامات الجزيلة، والترقيات الكثيرة الجميلة، على سائر المباشرين والمتعاطين لهذه الخدمة الشريفة الجزيلة، وحصل لمولانا شيخ الإسلام المشار إلى حضرته الشريفة ترقيات عظيمة، فصارت مدرسته السلطانية السلمانية بمائة عُثمانى، وما عهد ذلك لأحد من الموالى العظام فى مدارسهم وجهّزت إليه أنواعًا من الخلع الشريفة الفاخرة، وخوطب من قبل السلطنة الشريفة الخاقانية بالخطابات العالية الوفية السامية المتضمّنة للشكر الجميل منه، وأنه داخل فى جملة خواصّ السلطنة الشريفة، المشمولين بنظر عواطفها المنيفة، وإنعاماتها الجزيلة الوريفة، وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات

(١) منائح الكرم ٣/ ٤٥٨.

الليالى والأيام، والأعمال الصالحات الباقية التى لا يفنيها تكرُّرُ السنين والأعوام، وما عند الله من تضاعُف الأجر والثواب، فهو خيرٌ وأبقى عند أولى الألباب.

ومن آثار المرحوم السلطان سليمان بمكة المشرفة المدارس الأربع السليمانية، وسبب ذلك أن الأمير إبراهيم أمين إجراء عين عرفات، أسكنه الله من أعلى الجنّة والغُرْفات، عرض على الأبواب الشريفة السلمانية، وأَنْهَى للأَعْتاب العلية الخاقانية، أن المناسب للشأن الشريف السلطانى، وقدره العلى السامى السليمانى، أن يكون لحضرة السلطان بمكة المشرفة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرّس فيها علماء مكة المشرفة علم الفقه ليكون سببًا لاشتغالهم بعلم الشرع والدين ويرتفقون بوظائفها ويكون سببًا لإحْياء علم الشريعة ويُسْطَر ثواب ذلك فى صحائف حسنات للسلطنة الشريفة، فأجابه السلطان سليمان المرحوم إلى ذلك وبرزت الأوامر الشريفة السلطانية بعمل ذلك وعيّن لهذه الخدمة الأمير قاسم بك أمير جُدَّة المعمورة المذكور آنفًا، وأن يبادر إلى عمل ذلك فى أحسن الأماكن اللائقة، فأجمع رأىُ الأمير إبراهيم وقاسم بك وغيرهما من الأعيان أن اللائق لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبى[1] من المسجد الحرام المتّصل به من ركن المسجد الشريف إلى باب الزيادة وكان به البيمارستان المنصورى ومدرسة لصاحب كُنْباية السلطان أحمد شاه سلطان كجرات من أقاليم الهند، وكان من أصحاب الخير الكثير شديد المحبّة للعلماء كثير البرّ والصدقات[2].

وكانت المدرسة بيد مؤلّف هذا التاريخ والبيمارستان المنصورى وأَوْقاف السلطان الملك المؤيد شيخ سلطـان مصر من ملوك الجراكسة، وعدّة دُور تتعلّق بسيّدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن صاحب مكة المشرفة

(١) كذا فى الأصلين، والمنح الرحمانية ص١٢٨، و متن إعلام العلماء، وفى حواشيه: «الصحيح الجانب الشمالى».

(٢) إعلام العلماء ص١١٤.

أدام الله عزّه وإقباله ورباط يقال لها رباط الظاهر، فاستبدل البيمارستان واستبدلت المدرسة برباط كان بناه الخواجا يخشى القرمانى ولم تثبت وقفيّته فباعه ورثتُه فاشترى لجهة السلطنة الشريفة، وجعل بدلاً عن المدرسة الكنبايتية، واستبدل رباط الظاهر برباط آخر فى سويقة أحسن وأمكن منه، ووقف موضعه بدلاً عنه.

وأمّا الدور المتعلّقة بسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن أدام الله تعالى عزّه ودولته، فقدّمها جميعها للسلطنة الشريفة، واستبدلت أوقاف المؤيّدية بضياع قُرى فى الشام اختارها ذرّية المؤيد الموقوف عليهم وكتب مستنداتها وحججها، وأشرع الأمير قاسم فى هدمها وطلب العلماء والصلحاء والأشراف ووضعوا الأساس، فتقدّم قاضى مكة المشرفة يومئذ قدوة العلماء الأهالى، وصفوة العظماء الموالى، مولانا شمس الملّة والدين أحمد بن محمد بك النشانجى عظم الله تعالى شأنه، ورفع قدره ومكانه، ووضع بيده الشريفة الأساس، وتبعه من حضر من العلماء والسادات والأمراء وأعيان الناس، ووضع كلّ واحد منهم حجراً فى ذلك الأساس.

وكان يومًا مشهودًا مباركًا مسعودًا، وذلك لليلتين خلتا من شهر رجب المرجب سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، وكان عمق الأساس عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع بذراع العمل، ووضع فيه صخار كبار جداً، وأحكموا الأساس إحكامًا قويًا ، واستمرّ قاسم بك فى بذل الجدّ والاجتهاد مشدود الوسط كأنه بعض العُمَّال يجرى بعَصَاة من أول العمل إلى آخره بقوّة وجلادة من غير دقّة فهم ولا لطف طبع مع الجلافة والغلظ والاستبداد بالرأى وعدم المشاورة وعدم الإصغاء إلى رأى أحد، فأتّم بناء المدارس الأربع فى غاية الإحكام وزاد فى عرض الجدران من غير تعميق، وعمل بها مئذنة عالية أحسن فيها ولفق لسقوف المدرسة ولدَوْر إيوانها خشبات عتيقات واهيات تكسّرت وسقطت بعد وفاته، وجددها مولانا شيخ الإسلام على وجه الإتقان والإحكام.

وكتب قاسم بك بعض طرازها بخطّ رديء منحطّ وبعضه بخط رائق فائق لكونه أميًا لا يعرف الكتابة ولا يصغى إلى كلام أحد وصارت الأحكام الشريفة السلطانية تتوارد إليه بالاستعجال والاهتمام، وهو يستعجل فى الإتمام.

وعيّن المرحوم السلطان سليمان خان، عليه الرحمة والرضوان، وظائف المدرّسين والطلبة وغير ذلك من أوقافه بالشام، وعيّن لكل مدرس خمسين عثمانيًا فى كل يوم، وعيّن للمُعيد أربعة عثامنة، ولكلّ مدرّس خمسة عشر طالبًا، لكل طالب عثمانيّيْن[1]، وللفرّاش كذلك، وللبوّاب نصف ذلك، يجهّزها فى كلّ عام ناظر الأوْقاف السليمانية بالشام مع الركب الشريف الشامى إلى مكة المشرفة، فتُوزع على المدرسين والطلبة وظائفهم.

ولم تكمل المدارس الأربع إلا فى أيام دولة السلطان الأعظم، مالك ممالك التُّرك والروم والعرب والعجم، السلطان سليم خان، ابن السلطان سليمان خان، عليهما الرحمة والرضوان، فأنعم بالمدرسة المالكية السليمانية وهى رأس المدارس الأربع على سيدنا ومولانا القاضى حُسَيْن الحسينى المشار إليه أدام الله تعالى فوائده على الدوام بخمسين عثمانيًا، ثم رقاه إلى أن صارت مدرسته بمائة عثمانى، وأنعم بالمدرسة الحنفية السليمانية على مؤلّف هذا الكتاب بخمسين عثمانيًا فى أواسط جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة، فأَقْرَأتُ فيها قطعة من الكشاف والهداية وقطعة من تفسير المفتى الأعظم مولانا أبى السُّعُود العمادى بَوّأه الله تعالى غرف الجنان، وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرحمة والرضوان، وأَقْرَأتُ فيها درسًا فى الطبّ ودرسًا فى الحديث فى أصوله، وإنى أدرّس الآن فيها تكميل شرح الهداية للعلامة الكمال ابن الهمام، الذى كمّله الآن علاّمة علماء الإسلام، فهامة فضلاء الموالى العظام، مالك ناصية العلوم وفارس ميدانها، وحائز قصبات السبق فى حَلْبة رهانها، فريد دهره فى التحقيق والإتقان، ووحيد عصره فى التدقيق

(١) منائح الكرم ٣/ ٣٦١.

والإيقان، صاحب التصانيف الفائقة التى سارت بها الركبان، وتداولَتْها العلماء والطلبة فى سائر البُلْدان، الكريم المحسن إلى محبّيه غاية الإحسان، مولانا شمس الملّة والدين أحمد المعروف بقاضى زاده أفندى قاضى العسكر بولاية أناطولى أظهر الله على لسان قلمه ما دقّ وخفى عن الأفهام، وأفاض من زلال ألفاظه العذبة ما يروى عطش أكباد العلماء الأعلام، ذكر فيه من التحقيقات ما فات ابن الهمام، وقلّد أعناق علماء مذهب النُّعْمان قلائد دُرٍّ متّسق النظام، ومدّ لطُلاَّب العلم الشريف مَوَائد فوائد وضعها لهم على طرف الثُّمام، وأَوْرد فيه من خاصّة طبعه الشريف ثلاثة آلاف تصرُّف من بنات[1] أفكاره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولا شك أن ذلك فَيْض من الله الكريم، أفاض به من خزائن جُوده العميم، فشكر الله تعالى صُنعه الجميل، وأثابه وأزاده على ذلك مزيد الأجر والثواب الجزيل، ونفع بتأليفه سائر طلبة العلم الشريف، وأبقى فى صفحات العالم كتابه المفيد اللطيف، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولقد أحسن إلىَّ فى أيام صدارته وربّانى لدى الحضرة الشريفة السلطانية فرقّانى السلطان الأعظم، والخاقان الأكرم الأفخم، السلطان مُراد خان، خلّد الله مدّته الزاهرة مَدى الزمان، فصارت مدرستى بهمّته العلية بستّين عثمانيًا جزاه الله تعالى عنّى أفضل الجزاء، وأسبغ عليه من خزائن فضله وكرمه واسع الخير والعطاء، وأنعمت السلطنة الشريفة بالمدرسة السلطانية السليمانية الشافعية لإقراء مذهب الشافعى بمكة المشرفة على بعض علماء الشافعية بخمسين عثمانيًا، فدرّس فيها كُتُب فقه الإمام محمد بن إدْريس الشافعى رضى الله عنه، وأمّا المدرسة الرابعة السليمانية فقد جعلها المرحوم الواقف لإحياء مذهب الإمام أحمد بن حَنْبَل رضى الله عنه، فلم يُوجَد بمكة يومئذ من يكون ثابتًا فى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فعدل عنه إلى علم

(١) فى ل: «نبات» والمثبت من م.

الحديث الشريف، وجُعلت تلك المدرسة دار الحديث بخمسين عثمانيًا يقرأ فيها الصحاح الستّة.

فرحم الله تعالى السلطان سليمان وأثابه على مقاصده الجميلة من إسداء الخيرات، واقتناء المثوبات، بإحياء العلوم الشريفة المطهرة وسائر الباقيات الصالحات، أعلى غرف الجنّات، والنظر إلى وجهه الكريم، فى أعلى مراتب السعادات، الأخروية الباقيات.

وهذا الذى ذكرته بعض ما فعله من الحسنات، ولو أردنا استيفاء ما فعله من الخيرات، لاحتجنا إلى عدّة مجلّدات، فعدلنا عن ذلك إلى ما أثبتناه فى هذه الورقات، ووكلنا ما عداه إلى المشاهدات، فليس الخبر كالمعاينات.

* * *

openkandl.com